

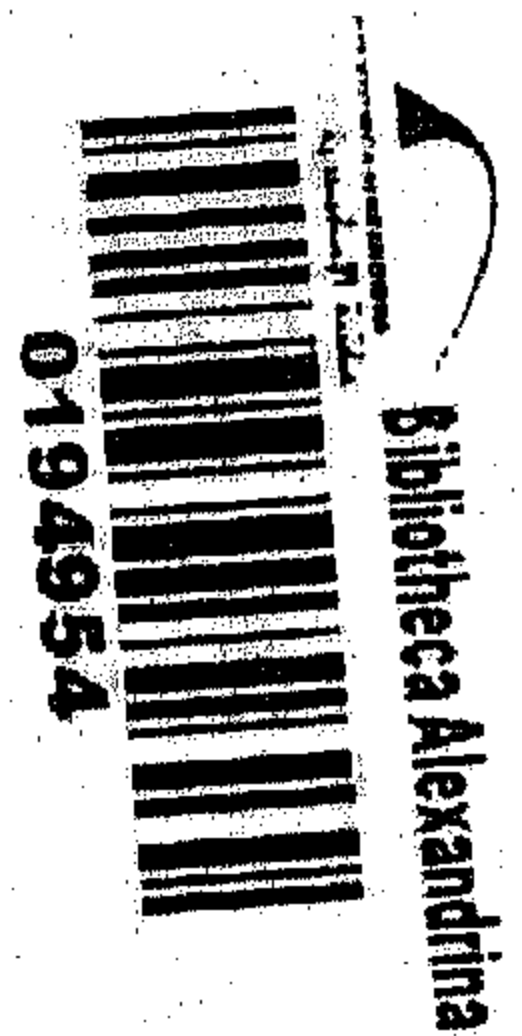
تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (حتى الفتح العثماني)

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
مدرس التاريخ الإسلامي
بجامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى
١٩٦١



دارالمعارف بمطر



تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (حتى الفتح العثماني)

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

مدرس التاريخ الإسلامي
بجامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٦١



دار المعارف بمطرا

مطبعة معماري و بوسكو
ت: ٢٧٥٩٣ اسكنارية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حظيت الإسكندرية العاصمة القديمة لمصر البطلمية والرومانية بعناية المؤرخين والجغرافيين القدامى منهم والمسلمين ، فزارها عدد كبير منهم في العصور المختلفة وبهرهم تخطيطها ونظام شوارعها ، فامتدحوا مبانيها وعبروا عن إعجابهم بروائعها ، ووصفوا عمرانها الزاهر وآثارها العظيمة التي احتفظت بها الإسكندرية في العصر الروماني والعصور الوسطى . وكان ممن زارها ووصفها المؤرخ بوليبيوس في العصر اليوناني ، والجغرافي سترابون في بداية العصر الروماني . أما في العصر الإسلامي فقد كانت مركزاً من مراكز الرحلة لما احتوته من عجائب وغرائب ، فزارها في هذا العصر جمهور من الرحالة المسلمين والمسيحيين على السواء ، سحروهم بياض أبنيتها (١) ، ونظافة شوارعها ، واستقامتها ، وكثرة آثارها ، وسجلوا إعجابهم بهذه الآثار في كل ما كتبوه من تواليف ، وزعموا أنها " إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد " (٢) ، ولذلك لا يخلو كتاب من كتبهم من وصف آثارها

(١) يقول ياقوت الحموي : « أما صفة بياضها فهو إلى الآن موجود ، فان ظاهر حيطانهم شاهداها مبيضة جميعها إلا اليسير النادر لقوم من الصعاليك » أنظر ياقوت ، معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٦ . وقال المقرئ في ذكر بياض مبانيها : « أن ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها فكان لباسهم فيها السواد والحمرة ، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام ... » الخطط ج ١ ص ١٤٨ ، ١٥٠ - السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ .

(٢) ذكر ابن عبد الحكم أن الذي بنى الاسكندرية شداد بن عاد ، وقال ابن هبة : بلغني أنه وجد حجر بالاسكندرية مكتوب فيه « أنا شداد بن عاد وأنا الذي نصب العماد » (أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧) ويذكر المقرئ = (١)

البتلمية والرومانية مثل المنار ومسلتي كليوباتره وعمود السواري والشوارع المقنطرة (١) المرصوفة بالبازلت والمفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون .
ومن زارها من الرحالة في العصور الوسطى : ياقوت الحموي ، وابن رشيد السبتي ، وابن سعيد المغربي ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وناصر خسرو ، والعبدري وبنيامين التطيلي . . . إلى آخره .

وهكذا اهتم المؤرخون القدامى والمحدثون بدراسة تاريخ هذه المدينة في العصرين اليوناني والروماني ، وذكر آثارها القديمة ، في حين لم يلق تاريخها الاسلامي منهم إلا عناية شاحبة هزيلة لا تشبع هوى الباحث أو الدارس لتاريخها هذا . كذلك لم تلق الاسكندرية في العصر الاسلامي العناية والاهتمام اللذين لاقتهما مدينة القاهرة مثلا ، ولعل ذلك يرجع إلى الطابع اليوناني الذي كانت تتميز به الاسكندرية رغم تعريبها أو إلى ضياع الجزء الأعظم من معالمها الإسلامية بسبب تطور عمرائها وتجدد هذه المعالم . وهكذا ظل جانب هام من تاريخ هذه المدينة العظيمة مهملا حتى ظهرت الأبحاث القيمة التي

= أن الاسكندر أصاب في الاسكندرية « أثر بنيان وعمد كثيرة من الرخام وفي وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من حمير وملوك عاد : أنا شداد بن عاد ، شددت بساعدي الواد ، وقطعت عظيم العباد وشوامخ الجبال والأوطاد وبنيت إرم ذات العباد التي لم يخلق مثلها في البلاد . . » (الخطط ج ١ ص ١٤٩) .

(١) ذكر المقرئ أن « أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر » (المرجع السابق ص ١٥٠) . ولقد أعجب الرحالة المسلمون بشوارع الاسكندرية فقد ذكر ياقوت الحموي عن الأزهر بن معبد أنه قال : « قال لي عمر بن عبد العزيز أين تسكن من مصر ، قلت أسكن الفسطاط ، فقال أف أم تن ، أين أنت عن الطيبة . قلت أيتها هي ، قال الاسكندرية . (أنظر معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٨) وذكر ابن حوقل النصيب : أن للاسكندرية « طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون » (ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥١) ووصف ابن جبير الأندلسي شوارعها فقال : « ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبني ولا أحفل منه » (الرحلة ص ٤٠) .

نشرها الدكتور نجال الدين الشيال والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة والأستاذ حسن عبد الوهاب، فكشفت هذه الأبحاث القيمة عما خفى من هذا التاريخ . ومع ذلك فإزال تاريخ هذه المدينة فى العصر الإسلامى فى حاجة إلى المزيد من الأبحاث العلمية ، خاصة بعد أن أسفرت الأبحاث الأثرية فى أرض الإسكندرية عن كشف أجزاء من سورها الإسلامى مما قد يساعد على إعادة تخطيط المدينة كما كانت فى هذا العصر .

ولقد تنهت جامعة الإسكندرية إلى أهمية دراسة تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وحرصت على تدريسه بكلية الآداب منذ العام الماضى لاتصاله إتصالا مباشرا بالتاريخ العام لمصر الإسلامية، ولعلاقته الوثيقة بتاريخ الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط ، وللدور الرائع الذى لعبته مدينة الإسكندرية فى المجال العلمى والسياسى والاقتصادى فى مصر منذ الفتح العربى حتى العصر الحاضر .

ولقد كان لى الفخر فى تدريس هذه المادة لأول مرة فى العام الدراسى ١٩٥٩ - ١٩٦٠ فرأيت أن أجمع هذه المحاضرات وأنشرها فى هذا الكتيب حتى يتيسر لطلاب الجامعة الاستفادة منها على أكمل وجه .

والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية فى فبراير سنة ١٩٦١

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

كان الاسكندر الأكبر يؤمن كل الإيمان بتفوق الحضارة الإغريقية على غيرها من الحضارات المعاصرة لها، فعمد لذلك إلى نشر هذه الحضارة في البلاد التي تغلب عليها ، ودخلت في فلك الإمبراطورية اليونانية . وكان لابد له أن يؤسس لهذا العالم المتأغرق مركزا حضريا يحقق له غايته من نشر وإشعاع الحضارة الهلينية في بلاد الشرق القديم (١) . فلما افتتح صور في يوليو سنة ٣٣٢ ق.م. بعد حصار دام سبعة شهور، زحف إلى مصر ودخلها، ولم يجد صعوبة في فتحها، ورحب به المصريون وتوجوه ملكا على مصر في معبد الإله بتاح بمفيس (٢) . وقضى الاسكندر فصل الشتاء في منفيس ثم ركب فرع النيل الغربي المعروف بالفرع الكانوبي (٣) متجها إلى واحة آمون المعروفة اليوم بسيوة ، فوصل مصب هذا الفرع الكانوبي في كانوب، ورحل بعد ذلك إلى بحيرة مريوط ، ومنها أدرك قرية ساحلية تقع على بعد أربعين ميلا شمال غربي نقراطيس لا يسكنها إلا نفر من صيادي الأسماك

(١) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة الجزء الأول القاهرة ١٩٤٦ ص ١٣ . زكي على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان : مقال في الكتاب الذي قدمته الغرفة التجارية بالاسكندرية بالمعرض الزراعي الصناعي سنة ١٩٤٩ ص ٣٥ .
(٢) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 24 — زكي على : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ١٩٤٢ ص ٥

وكانت هذه القرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis (١) (راقودة عند العرب) . ويذكر آريان أنه اختار هذه البقعة لتأسيس المدينة التي سماها باسمه قبل أن يرحل لزيارة معبد آمون . وقدر لهذه المدينة الخالدة أن تصبح من أعظم مدن العالم كما قدر لها أن تراث مدينة صور فيما بلغت من ازدهار اقتصادي .

وذكروا في تبرير اختيار الاسكندر لهذا الموقع بالذات أن هذا الميناء لا يتغرض للتيارات البحرية في شرق حوض البحر المتوسط التي كانت تدفع الرواسب النهرية التي يحملها النيل إلى مصبه نحو الشرق ، وأن هذه الرواسب كانت تهدد بسد الموانئ ، الواقعة على البحر شرق الدلتا ، وذكروا أن وجود جزيرة فاروس على مقربة من شاطئ راقودة ، ووجود بحيرة مريوط التي كانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر ووصول مياه النيل إلى المدينة عن طريق ترعة شيديا التي تتفرع من الفرع الكانوبي عند شيديا (٢) ، كل هذه الأسباب دفعت الإسكندر إلى اختيار هذه القرية موضعا لمدينة الاسكندرية (٣) . ويرى الأستاذ زكي على أن هناك عوامل مختلفة أدت إلى اختياره هذا بعضها عوامل ذات طابع اقتصادي وأخرى ذات صبغة حربية وسياسية ، فقد كان موقع الاسكندرية شبيها بميناء صور

(١) زكي على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثاني ١٩٤٤ ص ١٢١ - ١٢٢ ، الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٣٤ .

(٢) تتفرع هذه التربة إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما في محاذا الشاطئ إلى كانوب (أبي قير) بينما يتجه الآخر إلى الاسكندرية ويدور جنوب المدينة ثم يصب في الميناء الغربي المعروف بالصندوق وإن كان برشيا يعتقد أن هذا الفرع كان يصب في الميناء الشرقية (ص ٧٨) .

(٣) زكي على : الاسكندرية : تأسيسها . . ص ١٣٥ ، فؤاد فرج : الاسكندرية سنة ١٩٤٢ ص ٥٥ .

الحصينة وأن الشبه استلقت نظر الاسكندر الذي كان ينشد تأسيس ميناء حصين يسيطر من حيث موقعه الاستراتيجي على شرق حوض البحر المتوسط ويتحكم في الطرق التجارية العالمية في آن واحد باعتباره مركزا للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقي (١). ويأبى الأستاذ زكى على برأى آخر في مقاله عن "الإسكندرية في عهد البطالة والرومان" فيذكر أن راقوده كانت تؤلف المنفذ الرئيسي بين مصر وممالك البحر المتوسط والمركز التجاري الهام مع بلاد الإغريق في عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين، وأنها كانت أسهل للاتصال بالعالم الإغريقي من القرما مما دفع الاسكندر إلى إختياره لموقعها حتى يقيم عليه مدينة الجديدة (٢)، ويرجح بريشيا أن اختيار الاسكندر لهذا الموقع جاء نتيجة لقربها من نقراطيس المركز التجاري الهام، ولما واجهتها لجزيرة فاروس (٣). ويرى الدكتور إبراهيم نصحي أن الاسكندر، فيما يظهر، قد هدف من إنشاء الاسكندرية في هذا الموقع أن يجعلها ثغرا مقدونيا يخلف صور في العالم التجاري، خاصة وأن مصر لم تكن لها موانئ جديرة بها على شواطئ البحر المتوسط (٤). على أن الدكتور إبراهيم جمعة يرى أن فكرة بناء الاسكندرية جاءت عفوا خاطره، لأنه حين استولى على صور لم يكن قد فكر بعد في تأسيس مدينة الاسكندرية، وأن بناء الاسكندرية لاعلاقة له بأغراض تجارية (٥). إلا أنه مما لا شك فيه أن الاسكندر ضمن لمدينته أن تكون واسطة عقد التجارة

(١) زكى على : الاسكندرية تأسيسها ص ١٣٨ - ١٤٥ ، الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٣٥ .

(٢) زكى على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum P, 25

(٤) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ ص ١٣ .

(٥) إبراهيم جمعة : جامعة الاسكندرية القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٣ .

بين الشرق والغرب وهو ما كان يسعى جاهدا إلى تحقيقه بعد أن اتسعت إمبراطوريته وأصبحت تضم آسيا الصغرى وفينيقية وفارس ومصر ، وبدل اختياره لهذا الموقع على بعد نظره وحسن تقديره ، فكانت راكوتيس التي اختارها لهذا الغرض لاتعدو أن تكون شريطا ساحليا ضيقا يقع بين البحر شمالا وبحيرة مريوط جنوبا، وتشرف عليه جزيرة فاروس الصخرية من الشمال، وتقوم بمثابة حاجز طبيعي للحماية الميناء من طغيان البحر وأنوائه .

ويذكر جاستون جونديه Jondet أن بقايا الأرصفة التي كشف عنها في قاع البحر بالقرب من جزيرة فاروس تدل على أن جزيرة فاروس كانت تستخدم كميناء قديم منذ عهد رمسيس الثاني وظيفته حماية مصر من طغيان سكان البحار ، ويستند جونديه إلى ضخامة الأحجار وتشابهها بأحجار الأبنية الفرعونية (١) . والواقع أننا لا يمكن أن نقطع برأى في هذا الموضوع مادامنا لم نفحص هذه الآثار ، على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الأحجار من بقايا معبد السيرايوم ، فقد ذكر المقریزی في الخطط . " أنه كان حول (عمود السواري) نحو أربعمئة عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا " (٢)، أو من بقايا الأهرامات الصغيرة التي هدمها صلاح الدين واستخدم أحجارها في بناء الأسوار والقلعة (٣) وعهد

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos (M. I. E. vol. IX, le Caire 1916.

زكى على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٣٤ .

(٢) المقریزی : الخطط ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) شاهد ابن جبير سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) (المدينة القديمة المسوية ليوسف الصديق وبها موضع السجن الذي كان فيه وهو الآن ينقض وينقل أحجاره إلى القلعة المبنية الآن على القاهرة) ص ٥٧ . وشاهد أيضا موضعا في منية ابن =

الاسكندر إلى المهندس دينوقراطيس Dinocrates بتخطيط الإسكندرية وتولى كليومينس النقراطيسى Cleomenes الإشراف على أعمال البناء، إذ كان يقوم بإدارة الشؤون المالية في عهد الاسكندر (١). وقام دينوقراطيس بتطبيق نظام التخطيط الإغريقي الذي ابتدعه هيبو داموس الميليطي Hippodamus في القرن الخامس قبل الميلاد وطبقه في رودس وهاليكارناسوس (٢)، ويتميز هذا النظام بتقسيم المدينة إلى شوارع مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة بحيث يتألف من ذلك ما يشبه رقعة الشطرنج (٣). على أن تخطيط الاسكندرية لم يتم في حياة الاسكندر، إذ مات في ١٣ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. بمدينة بابل وهو شاب في سن الثالثة والثلاثين. وبموته يبدأ عصر جديد هو العصر الهلينستي (٣٢٣ - ٣١ ق.م.) ونعني به عصر الحضارة المتأخرة أو

= الخصب اسم أنصنا (كان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفة من حمل صخره إلى القاهرة فنقل بأسره إليها) ص ٥٨ .
وذكر الشيخ عبد اللطيف البغدادي المتوفى عام ٦٦٨ هـ أنه كان بالجيزة عدد كثير من أهرامات حجرية صغيرة « فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدى قراقوش أحد الأمراء ، وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وكان يتولى عمائر مصر ، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطة بالفسطاط والقاهرة وما بينها وبالقلعة التى على المقطم وأخذ حجارة هذه الأهرامات الصغار) أنظر عبد اللطيف البغدادي، كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ ص ٢٣ .

(٤) Breccia, Alexandria ad Ægyptum p. 26.

(٥) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ح ١ ص ٣٢٤ - زكى على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٤٢ . ولقد لاحظ مؤرخو وجغرافيو العرب هذا النظام فأشار إليه ياقوت صاحب المعجم فقال « وهى شطرنجية ثمانية شوارع في ثمانية » المجلد الأول ص ٢٦٠ . وظل هذا النظام قائما حتى أيام المماليك فقد وصفه ابن شاهين الظاهري بقوله « وهى مدينة مركبة على عمد ، وشبهها بعضهم لرقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » أنظر كتاب زبدة كشف الممالك ص ٤٠ .

الحضارة الإغريقية التي اكتسبت كثيرا من الصفات المحلية أو العناصر الشرقية ، فابتعدت بعض الشيء عن صفاتها الأصلية وهي الصفة الهلينية. وانتشر هذا النوع من الحضارة في النواحي الشرقية للإمبراطورية الإغريقية، ولكن مصر امتازت عن غيرها من البلاد المتأثرة وأصبحت تحتل المركز الأول لهذه الحضارة من جميع الوجوه (١).

حاول قواد الاسكندر أن يتفقوا في بابل على تنصيب خلف للإسكندر ، ولكن اتفاقهم لم يكن إلا ظاهريا ، إذ أجمعوا أخيراً على تنصيب أخ غير شرعي للإسكندر كان مصابا بالصرع والبله اسمه أرهيدا يوس الذي لقب بفيليب ، والاعتراف بحق روكسانا الفارسية زوجة الاسكندر في إشراك طفلها - إذا جاء ذكرا - مع فيليب في شؤون الملك، وتعيين برديكاس الوضاية عليها . وقام برديكاس بمهمة توزيع حكم ولايات الامبراطورية بين القواد، فمنح حكومة مصر لبطليموس بن لاجوس الذي عرف باسم سوتر أو المنقذ ، وكان يطمع في الظفر بها ، نظير اعترافه بمركز برديكاس كوصي على الملكين ، كما عين كليومينس النقراطيسي مساعدا لبطليموس في مصر . وشرع بطليموس حكمه في منف بالتخلص من كليومينس حتى لا يكون رقبيا عليه ، خاصة وأنه كان يهدف إلى الاستقلال بمصر عن الإمبراطورية ، فأمر بقتله ومصادرة أمواله . وازداد نفوذ بطليموس بعد ذلك عندما استولى على برقة سنة ٣٢٢ ق.م. وضمها إلى أملاكه . وأثار بذلك غيرة زملائه وعلى الأخص برديكاس الذي غضب لقتل كليومينس . وكانت الفتن قد اشتعلت في سائر أنحاء الامبراطورية ، ودبت الانقسامات بين أفراد الأسرة المالكة . وازدادت مطامع الولاة في الاستقلال وقامت

(١) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ ص ٢٠ ، لطفى عبد الوهاب : مقدمة لحضارة الاسكندرية ص ٤ ، ١٧ ، زكى على : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ص ٤٩ .

بينهم الحروب وقنع بطليموس بتتبع هذه الأحداث من بعيد : فانتهر فرصة انشغال برديكاس في آسيا واتفق مع أرهابايوس سرا على الفوز بجثة الاسكندر التي قرر اجتماع بابل في يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. دفنها في مقدونيا . ويبدو أنه كان يهدف من وراء ذلك تدعيم مركزه السياسي والروحي في مصر . وكان قواد الاسكندر قد عهدوا إلى أرهابايوس بمهمة إعداد التابوت الذي توضع فيه الجثة ، وتنظيم احتفال كبير لدفن الجثة في إيجي (١) . وفي أواخر عام ٣٢٢ ق.م. وصلت جثة الاسكندر إلى سوريا فانتقل إلى هناك ونقلها إلى مصر حيث دفنها باديء ذي بدء في منف ريثما يتم بناء مقبرة لها في الاسكندرية فيدفنها هناك . وكان ظفر بطليموس بجثة الاسكندر كسبا سياسيا له وطد مركزه ، ودعم منصبه كوريث للإسكندر في مصر ، كما كان صفقة لبرديكاس وتحديا له وكان لابد لبرديكاس من كسر شوكة بطليموس والقضاء عليه باعتبار أنه أشد خصومه وألد أعدائه ، فأعد الحملات إلى مصر وحاصرت قواته بيلوز ، ولكنه فشل في اقتحامها وثار عليه جنده وقتلوه . وهكذا أخفق في سياسته وراح ضحية أطماعه . وبموت برديكاس ثبت بطليموس على عرش مصر وأخذ يعمل على تقوية دعائم استقلاله ، والاتجاه بسياسة مصر نحو البحر المتوسط الذي أخذ يؤلف مركز الحضارة ، بعد أن كانت تتجه فيما مضى إلى آسيا ، فعقد أحلافا مع جزر شرق البحر المتوسط ، وأعد نفسه لاختيار الاسكندرية عاصمة له في مصر . وفي سنة ٣١٩ ق.م. هاجم جنوب سوريا واستولى عليه ؛ إذ كان يطمع في غاباته الغنية لاستخدام أخشابها في بناء أسطوله ، تمهيدا لاصطناع سياسة بحرية .

وتألفت الحياة الاقتصادية في مصر في عهده ونمت موارد الدولة ، فاستغل ما لديه من أموال في تجميل الاسكندرية ، واستكمال عمرانها ، وإعدادها لتكون جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد ، وبويرة للحضارة الاغريقية . فأقام

(١) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ ص ٣٤ .

بها الأبنية العظيمة . وسار على نهج الاسكندر في مصادقة المصريين دينيا ،
إذ كان قد أسس في الاسكندرية معبدا للإلهة إيزيس المصرية حتى يوفق
بينه وبين المصريين . وفي نفس الوقت أقام معابد أخرى للآلهة اليونانية .
فحرص بطليموس على إيجاد دين مشترك يربط بين الشعب اليوناني والشعب
المصري ويقرب بينهما . فجعل للبلاد معبودا جديداً اسمه سيرابيس Serapis ،
وأقام له معبدا عظيماً جنوباً الاسكندرية في الحى الوطنى الذى كان يعرف
براكوتيس (١) .

ازدهرت الاسكندرية في عصر البطالة ، واتسعت مرافقها ، ونمت عمارتها ،
وأقيمت فيها المنشآت الخليفة الرائعة وأصبحت تفوق غيرها من المدن
اليونانية الرومانية ، خاصة بعد أن نقل إليها بطليموس جثة الاسكندر
ودفنها في السيا . لقد حرص بطليموس سوتر على تزويد الاسكندرية بكل
ما تحتاج إليه من تزيين وتنميق ، لاستكمال عظمتها ، فربط بين جزيرة فاروس
وبين المدينة برصيف أو جسر طوله نحو ١٢٥٠ متراً وعرضه نحو ٣٠ متراً
سمى بالهبتاستاديوم Heptastadium وقد قدر لهذا الرصيف أن يتسع بضى
الزمن ويصبح حياً هاماً من أحياء المدينة ، وبذلك قسم ميناء الاسكندرية
إلى مينائين : أحدهما شرقى ويعرف بالميناء الكبير Megas Limen ، والآخر
غربى يسمى ايونوستوس أى الصندوق Eunostos ، ويعرف بميناء
السلام (٢) وهو الميناء الحالى ، وقد سمي بالصندوق لأنه مقفل من سائر
الجهات ، وكانت تصب فيه قناة متصلة ببحيرة مريوط . وكان هذان الميناءان
يتصلان بعضهما ببعض عن طريق ممرين محصنين ، فتحا بالحسر عند طرفيه

(١) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها ص ١٥٥ - الاسكندرية في عهد البطالة
والرومان ص ٤٢ .

(٢) زكى على ، الاسكندرية : تأسيسها ص ١٦٠ - الاسكندرية في عهد
البطالة والرومان ص ٤٩ . Breccia: Alexandria Ad Ægyptum, p. 68, 78.

الجنوبي والشمالي . ومد بطليموس من الطرف الشمالي لرأس لوكياس Cape Lochias شريطا صخريا ينحني نحو الغرب ، وظيفته حماية الميناء الشرقي من أنواء البحر وعواصفه . واتخذ بطليموس لنفسه ميناء داخل الميناء الشرقي ، جنوبي جزيرة أنتيرودوس ، سماه الميناء الملكي أو ميناء الملوك ، وبذلك أصبح ميناء الإسكندرية يفوق سائر موانئ البحر المتوسط .

وكانت المدينة في عصر البطالمة تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل ، بحيث تولى شكلا مستطيلا طوله يفوق عرضه، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة المرسوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر (١) تتقاطع فيما بينها : سبعة ممتدة طولاً بحذاء الساحل ، واثني عشر تقطعها عرضاً من الشمال إلى الجنوب . وقد ذكرنا أن الفضل في هذا التخطيط الشطرنجي يرجع إلى دينوقراطيس . وكان يمتد من الشرق إلى الغرب ، ويعرضها من الجنوب إلى الشمال شارعان رئيسيان ، لا يقل اتساع الواحد منها عن ثلاثين متراً ، الأول يسمى الشارع الكانوبي ، لأنه يمتد من الباب الشرقي حتى ضاحية كانوب (أبي قير حالياً) ، متتبعا طريق الحرية في الوقت الحاضر (٢) ثم يمتد من الباب الغربي حتى شاطئ البحر ، وكان يزدان على جانبيه بالأعمدة والتماثيل كما كانت تتخلله أقواس النصر . أما الطريق الثاني فكان يقطع الطريق الكانوبي في وسطه ، ويتفق تخطيطه مع خط شارع النبي دانيال في الوقت الحاضر . وكان لهذا الطريق العمودي على البحر نفس اتساع الطريق الكانوبي وكان يزدان كذلك بالتماثيل والأقواس والأعمدة ،

(١) يرى الأستاذ نوك Noak أن البازلت الملون الذي رصفت به شوارع المدينة من العصر الروماني (Breccia, op. cit. p. 72) .

(٢) فند بريشيا الآراء المعارضة لنظرية اتفاق الطريق الكانوبي القديم مع طريق أبي قير وانتهى إلى تأييد فكرة مطابقة تخطيط الشارع القديم مع الشارع الحالي . (أنظر بريشيا ص ٧٤) .

وقد أطلق على هذا الشارع اسم السيام تحريفاً من كلمة السوما ، وهى كلمة إغريقية معناها الجسد ، وقد سمي كذلك بسبب وقوع ضريح الاسكندر فى نقطة التقاء هذا الشارع مع الشارع الكانوبى فى الميدان المسمى باسم Meson Pedion (١) . وكان يقوم على جانبي كل من هذين الشارعين بائقتان ممتدتان بطولها بحيث تؤلفان ممران على جانبي الطريق يحتمى تحتها المارة من سقوط المطر أو حرارة الشمس . ولقد أطلق بطليموس فيلادلفوس على شوارع المدينة اسم زوجته اريسينوى يضاف إليها ألقاب آلهات الإغريق التى شُهِت بها : مثل أرسينوى بازيليا ، وأرسينوى تليا ، وأرسينوى الألوسية ، وأرسينوى خالكويكس (٢) .

وكان يحيط بالإسكندرية سور حجري عظيم مزود بالأبراج الضخمة ، يفوق فى اتساع نطاقه أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سيراكوصة وأثينا (٣) . ويبدو أن هذه الأسوار كانت من بناء بطليموس سوتر وفقاً لما ذكره تاسيتوس ، وكانت الأسوار من الجهة الشمالية الشرقية تمتد بحذاء الشاطئ حتى رأس لوكياس ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى (٤) . ويعتقد بوتى Botti أن الجزء الشمالى من المدينة المطل على الساحل لم تكن به أسوار ، وأن أسوار الجانبين الشرقى والغربى كانت ثلاثية أى تتألف من ثلاثة أسوار ، وذكر المقرئزى أنه كان على الإسكندرية

(١) إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ - زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ص ١٦١ .

(٣) Breccia, Alex. Ad. Ægyptum, p. 69 . يذكر محمود باشا الفلكى أن محيط الأسوار كان يبلغ نحو ١٥٨٠٠ متراً وأن طولها كان يبلغ ٥٠٩٠ م وعرضها يتراوح ما بين ١١٥٠ ، ٢٢٥٠ م .

(٤) Breccia, op. cit. p. 71



(شكل ١) جانب من البرج الروماني بالشالات

سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق (١) . وذكر السيوطي هذه العبارة نقلا عن ابن عبد الحكم عن عبد الله بن طريف الهمداني (٢) ، أما ابن رسته فقد أشار إلى أسوار الاسكندرية إشارة عابرة عند حديثه عن الطريق المائي الواصل بين القسطنطينية والاسكندرية ، فيذكر أنه يخرج من القسطنطينية في سفينة ، ثم ينحدر في النهر فيسير مسافة ثلاثين فرسخا (أى ما يقرب من مائة وستين كيلومترا) لا يرى عن يمينه وعن يساره سوى النخيل والبساتين والضياع حتى ينتهي إلى سور الإسكندرية (٣) . وكان يفتح في سور الاسكندرية أربعة أبواب كان يطلق على الشرقي منها اسم باب الشمس ، وعلى الباب الغربي باب القمر (٤) . ولقد تعرضت هذه الأسوار للتجديد في العصر الروماني أيام هادريان وأنطونيوس .

وكانت المدينة في العصر البطلمي تنقسم إلى خمسة أحياء متجاورة ، رمز لكل منها بأحد حروف الهجاء اليونانية وهي ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ، إبسيلون . (٥) وقد ذكر السيوطي نقلا عن ابن عبد الحكم أنه كانت بالاسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جانب بعض : هي (أ) موضع المنارة وما والاها (ب) والاسكندرية وهي موضع قصبة الاسكندرية في عهده (ج) ولقيطة ، وأنه كان يحيط بكل من هذه المدن سور ويضم المدن الثلاثة جميعا سور جامع (٦) . هذا وقد اختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه

(١) المقرئى ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ .

(٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ١١٨ .

(٤) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ص ١٦٠ ، الاسكندرية في عهد البطالمة والرومان ص ٤٩ جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية أكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ١٩٦ .

(٥) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عهد البطالمة ص ٣٣٠ -

Breccia, op. cit. p. 68.

(٦) أنظر السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ ، المقرئى ج ١ ص ١٤٨ .

الأحياء على وجه الدقة . وأهم هذه الأحياء الخمسة ثلاثة هي : الحى الملكى والحى اليهودى والحى الوطنى .

فالحي الملكى يشغل الجزء الشمالى الشرقى من المدينة وهو الحى المعروف باليونانية باسم بيتا ، وكان يضم القصور الملكية والبساتين الممتدة حتى داخل رأس لوكياس ، وأهم آثاره دار العلم ، والمكتبة، ودار العدل، والحننازيوم، والبانيوم، والسما . أما الحى اليهودى أو حى الدلتا، فكان يقع خلف الميناء الشرقى الكبير فى الجوف ، عند بداية الطريق الكانوبى وإلى الجنوب الشرقى من الحى الملكى . أما الحى الوطنى فيقع إلى الجنوب الغربى من المدينة فى الموضع الذى كانت تشغله قرية راكوتيس القديمة ، وهو حى الأهالى والعمال ، وكان يقوم فيه معبد السيراييوم الذى أقامه بطليموس لعبادة سيرابيس، وألحقت به مكتبة صغيرة ومعبد مخصص للإله أنوبيس كما أقيم فيه ميدان للألعاب يعرف باسم ستاديوم (١) .

وكانت المقابر تقع فى ظاهر المدينة ، فى شرقها وغربها ، وكان اليونان والأجانب يدفنون بالمقابر الشرقية فى العصر البطلمى ، أما المقابر الغربية فكان يدفن بها المصريون وعدد قليل من اليونان ، وأغلب المقابر البطلمية كانت فى جوف الأرض ، وتتألف عادة من حمرات وغرف وجوفات منحوتة فى الصخر فى تخطيط معقد كما هو الحال فى مقابر كوم الشقافة والشاطبي (٢) .

وفما يلى أهم المؤسسات والمنشآت العامة التى أقامها البطالمة فى الاسكندرية وكانت سبب عظمتها وشهرتها : —

(١) Breccia, op. cit. p. 104.

(٢) كانت مقبرة كوم الشقافة تعرف باسم نكروبوليس

Breccia, op. cit. pp. 82-83



(شكل ٢) جانب من البرج الروماني بسور الاسكندرية جهة الشلالات

أورو - المنار :

كان لابد لبطليموس سوتر أن يعنى بميناء الاسكندرية حتى تتحقق له السيادة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد رأينا أنه بنى الرصيف الحجري الذي يقسم ميناء الاسكندرية إلى ميناءين ، ويصل في نفس الوقت بين المدينة نفسها وبين جزيرة فاروس الواقعة أمامها . ولما كان يتعذر على السفن التجارية والحربية الدخول في الفراغ الضيق الواقع بين الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة فاروس والطرف الشمالى الغربى من الشريط الصخرى المتصل برأس لوكياس ، فقد رأى بطليموس أن ينشئ عند مدخل هذا الميناء منارا ضخما لهداية السفن عن طريق إشعال النار في قمته . وعهد بطليموس باقامة هذا المنار في الموضع المذكور من جزيرة فاروس إلى المهندس سوستراتوس دى كيندوس ابن ديكسيفانس الذى شرع في تأسيسها في أواخر أيام سوتر ، وأتم بناءها في أوائل عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ - ٢٧٩ ق.م.) وجاء بناؤه أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبعة (١) . ولقد ضاعت معالم هذا المنار الذى ذاعت شهرته في الآفاق ولم يتبق منه إلا أساسه الذى أقيمت عليه قلعة قايتباي سنة ٨٨٢ هـ . فلقد تهدم طابقه العلوى في القرن الثانى الهجرى سنة (١٨٠ هـ) بسبب الزلازل ، وظل المنار كذلك حتى قام أحمد بن طولون بترميمه فجعل في أعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح (٢) . وفي عهد الظاهر بيبرس قام ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته للاسكندرية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) ، وأنشأ في أعلى المنار مسجدا في الموضع الذى كانت تشغله قبة ابن طولون . إلا أن هذا

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ . يذكر المقرئى في الخطط أنه كان « في المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد ، فإذا رأى أهل المنار ما يريدونهم أشعلوا النار من جهة المدينة ، فإذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو » المقرئى : الخطط ج ١

ص ١٥٧ .
(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ - السيوطى : حسن المحاضرة

المسجد لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الحاشنكي في سنة ٧٠٣ هـ . وعبثت يد الإهمال بهذا الأثر الجليل فلم يحاول سلاطين المماليك بعد بيبرس تعميره أو ترميمه وتهدم جانب منه ، ويرجح تهدم المنار كله فيما بين عامي ١٣٢٦ ، ١٣٤٩ (١) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فلقد شاهده الرحالة ابن بطوطة مرتين : مرة في رحلته الأولى إلى مصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد جوانبه مهلما ، ومرة في رحلته الثانية سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) فوصفه قائلا : " . . . فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر - رحمه الله - شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن إتمامه " (٢) . فلما كانت أيام الأشرف قايتباي أمر بأن يبنى على أنقاض منار الاسكندرية برجاً جديداً سمي ببرج قايتباي ، فتم البناء في عامين . ولقد وصلتنا أوصاف عديدة لهذا المنار في العصور الوسطى (٣) ، وقد استخدم بتلر Butler بعض هذه الأوصاف في تصوير منار الاسكندرية ونخيله كما كان قبل دثوره ، ومنه نستنتج أن المنار كان يتألف من " قاعدة مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مشتمة الاضلاع وتندق في حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ، ويستدير شكلها ثم

Omar Tousoun, Description du Phare d'Alexandrie d'après =
un auteur arabe du XIIe siècle, dans B. S. R. A. fasc 30, 1936, pp. 49-53.

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٤ .

(٣) أرجع إلى : ابن حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض تحقيق كرامرز ،

ليدن ١٩٣٢ ص ١٥١ ، ابن رسته : الأعلاق النفيسة المجلد السابع ليدن ١٨٩١ ،
اليقوي : كتاب البلدان ص ٣٣٨ ، ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت
ليدن ١٩٠٧ ص ٤١ - رحلة بنيامين التيطلي Viajé de Benjamin de Tudela
مدريد سنة ١٩١٨ ص ١١٣ - ١١٥ ، القرطبي : الخطط ج ١ ص ١٥٥ ، ابن
الفقيه : مختصر كتاب البلدان ج ٥ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٥ ص ٨٢ .



(شكل ٣) منار الاسكندرية وفقا لوصف المؤرخين

يعلوها عند القمة مصباح " (١) ثم تبعه تيرش Thiersch الذى استخدم لوصف المنار كل ما أمكنه العثور عليه من مصادر تاريخية يونانية ولاينية وعربية كما استعان بنقوش من العملات ورسوم الفسيفساء بسور سان ماركو بالبندقية ، وتتلخص كل دراسته لهذا الموضوع فى رسم أظهر فيه المنار كبرج حجرى ارتفاعه ١٢٤ مترا ، يتألف من طابق أدنى مربع الشكل ، يعلوه جسم مئمن الشكل ارتفاعه نحو ٣٠ مترا وينتهى بشرفة ثم يعلوه جسم أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا ، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة تعلوها قبة داخلها مرآيا محدبة الشكل وظيفتها عكس طيب النيران فى أعلى المنار لهداية السفن . ويعلو القبة تمثال ضخمة من البرونز ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون (٢)

ثانيا - دار الحكمة والمكتبة :

عهد بطليموس سوتر إلى الخطيب الأثينى ديمتريوس فاليريوس Demetrius Phalerius بتأسيس دار الحكمة (ميوزيوم) والمكتبة فى الحى الملكى بالاسكندرية ، لتؤدى وظيفة الجامعة العلمية التى يتوافد إليها العلماء والمفكرون من كافة أنحاء العالم الهلينستى ، حتى تنافس أثينا مركز الثقافة الهلينية ، وأقام بهذه الدار عدد من العلماء الذين برزوا فى الجغرافية والفلك والعلوم والرياضة والطب والتاريخ والأدب والفلسفة ، وكانت الدولة تمنحهم مرتبات ضخمة لتشجيعهم على أعمال البحث والتنقيب (٣) . فنيح اراتوستينس Eratosthenes فى

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٤٥ .

(٢) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum, p. 108, 109

عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية نظرة عامة عن تطورها ص ٧ .

دائرة معارف الشعب عدد ٨٥ ص ٣٢٨ .

فؤاد فرج ، الاسكندرية ص ٢٠ - جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافية

المدينة وتطورها ص ١٩٨ .

(٣) زكى على ، الاسكندرية فى عهد البطالة والرومان ص ٥٤ .

الجغرافيا (أول من قاس قطر الأرض) واريستاركوس Aris archus في الفلك (أول من اكتشف المجموعة الشمسية) واقليدس في الهندسة (كتب كتابه المسمى العناصر والأصول في الرياضيات) الذي تتلمذ عليه ارشميدس ، كما نبغ تيوفراستوس في علم النبات ، وأراسيدستراتوس في الجراحة ، وهيروفيلوس في الطب والتشريح وكالياهو Callimachus وتيوكرتيس وأبولونيوس الرودى في الشعر ، وازدهرت العلوم الفلسفية والأدبية في أواخر أيام البطلمة (١) . أما المكتبة فكانت تضم عددا هائلا من الكتب العلمية والأدبية ، فقليل أنها باغت في أيام بطليموس فيلادلفوس نحو أربعائة ألف مجلد ، هذا باستثناء ما كان موجودا في القصور الملكية وفي المكتبة البنت التي كانت تعتبر فرعا من المكتبة الكبرى . وارتفع عدد هذه الكتب إلى ما يقرب من الضعف (٧٠٠ ألف) في آخر أيام كليوباترة . وهكذا كانت مكتبة الاسكندرية أعظم مكتبات العالم . ويبدو أن ذلك لا يعلو أن يكون اتجاها سلكه البطلمة نحو الدعاية السياسية عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمركز للثقافة العالمية والعلوم ، فزودوا مكتبة الإسكندرية بالنسخ الأصلية من الرسائل التي وجدت في عصرهم وتوسل بعضهم بطرق ملتوية لشراء الكتب (٢) .

ولقد ظلت دار الحكمة ومكتبة الاسكندرية تجملان مشعل الحضارة الاسكندرية حتى احترقت المكتبة عام ٤٨ ق.م. عندما أشعل يوليوس قيصر النيران في سفن المصريين فامتدت ألسنتها إلى الأرصفة القريبة وأحرقت المخازن الجمركية واتصلت بعدها بمخازن الكتب التابعة للمكتبة (٣) في الحى الملكى . ثم قضى الاضطراب السياسى والدينى فى الاسكندرية فى عصر

(١) لطفى عبد الوهاب ، مقدمة فى حضارة الاسكندرية ص ٢٥ ، ابراهيم جمعة جامعة الاسكندرية ص ٣٤ - ٧٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) لطفى عبد الوهاب ، ص ٢٦ .

(٣) كانت المكتبة تقع بين الملعب ورأس لوكياس .

انتشار المسيحية على العدد الأعظم ، ما تبقى من هذه الكتب . ومع ذلك فقد ظلت بقايا دار الحكمة في العصر الاسلامي ، فوصفها الرحالة المسلمون وغيرهم (١) وسماها بنيامين التطيلي باسم أكاديمية أرسطو ، أستاذ الاسكندرية (٢) .

ثالثا - المعابر :

أقام بطليموس معبد السرابيوم لعبادة سراييس ، شيد فوق مرتفع من الأرض في غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى ، وكان يؤدى إليه درج مؤلف من مائة درجة ، كما كان يضم أروقة تطل بواسطة بوائك على أفنية . وأضيف إلى هذا المعبد في عهد بطليموس فيلادفوس (٣) . وفي عصر دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) أقام بوسانيوس ، حاكم الاسكندرية ، في معبد السرابيوم عمودا ضخما من الجرانيت تكريما لزيارة الامبراطور للاسكندرية ، وقد عرف هذا العمود باسم عمود السوارى ، ويبلغ ارتفاعه بما في ذلك قاعدته ورأسه نحو ٢٦,٨٥ مترا ، قطره من أسفل ٢,٧٠ م ، وقطره من أعلى ٢,٣٠ م ، وقد أعجب به كل من زار الاسكندرية من الرحالة المسلمين ووصفوه وصفا رائعا (٤) .

ولقد تعرض هذا المعبد للهدم سنة ٣٩١ م ، حين أمر بهدمه البيطريك ثاوفيلوس ، وكسر تمثال سراييس (٥) وأقام على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان .

(١) أنظر كتاب الأعلام النفيسة ص ١١٨ (. . . فتدخل باب الشرق من الاسكندرية فهناك قبة خضراء على ستة عشر عمودا من رخام وهى وسط المدينة بناها الاسكندر . . .)

(٢) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 113.

(٣) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها . . . ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) ابن رسته ص ١١٧ ، ياقوت الحموى المجلد الأول ص ٢٦٢ ، ابن حوقل

ص ١٥٠ ابن جبير ص ٤١ ، المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٥٩ - ١٦١ .

(٥) Breccia, op. cit. p. 113

كذلك أقامت كليوباترة معبد القيصر يوم احتفالا بقدوم أنطونيوس ، ويمكن تحديد موقع هذا المعبد اليوم في الموضع الذي تقوم عليه الكنيسة المرقسية وكنيس اليهود ، ونصبت كليوباترة أمام المعبد مسلتين نقاتهما من معبد عين شمس ، وكانتا تحملان شعار تحتمس وسيتي الثاني ، وهما المسلتان اللتان نقلتا إلى لندن ونيويورك . ولقد تحول هذا المعبد إلى كنيسة عام ٣٥٤ م ، ثم أحرق عام ٩١٢ م .

رابعاً - السوما أو ضريح الاسكندر :

يذكر استرابون أن بطليموس سوتر نقل جثة الاسكندر من منف إلى الاسكندرية ، ووضعها داخل تابوت من الذهب الخالص ، غير أن رفات الاسكندر لم تلبث أن نقلت إلى تابوت من الرخام الشفاف ، بعد أن استولى بطليموس الحادى عشر على التابوت الذهبى (٨٠ ق.م. - ٥٨ ق.م. (١) . ويبدو أن ضريح الاسكندر كان مقاما في قلب المدينة في شارع السينا ، ويرى جمهور من رجال الآثار احتمال وقوعه بجوار الكنيسة المرقسية بينما يرجح عدد آخر أنه مطمور تحت جامع النبي دانيال . وأقام البطالمة مقبرتهم حول قبر الاسكندر في تل البانيوم (كوم الدكة) ، وذكر استرابون أن هذه المنطقة كانت تلا صخوريا يمكن الوصول إلى أعلاه عن طريق أحدور لولي (٢) ، ويشرف هذا التل على المدينة كلها .

* * *

ثم أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية منذ انتصر أغسطس قيصر على كليوباترة في موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ، وأقام الرومان حامية رومانية في معسكر كبير شرقى المدينة ، في ضاحية نيكوبوليس ، وفقدت الاسكندرية كثيرا من عظمتها السياسية في العصر الرومانى لأنها أصبحت

(١) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها ص ١٦٤ — Breccia, op. cit. p. 98

(٢) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها . . . ص ١٦٧ .

تابعة لروما التي فرضت سيادتها على العالم الروماني بقوة ساعدها ، ومع ذلك فقد كان الرومان ينظرون إلى مصر نظرة خاصة ، فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق.م. ، إلى ولايات تابعة لاسناتو ، وأخرى تابعة للإمبراطور ، كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة ، وكان لها مركز رفيع بين هذه الولايات إذ أقيم عليها حاكم رفيع الرتبة يدعى Praefectus (١) . ولعبت الاسكندرية دورا هاما في التاريخ الروماني ، فلقد عمل الأباطرة الرومان إلى إخضاعها لأن في ذلك ضمان لخضوع مصر كلها ، وتوسلوا في سبيل ذلك بالتفريق بين الإغريق واليهود في الاسكندرية ، وانتزاع السلطات النيابية من أيدي الإغريق السكندريين ، وهنا اشتد العداء بين الفريقين على الأخص في عهد كاليجولا Caligula (٣٧ - ٤١ م) (٢) وطالب الإغريق في عهد كلوديوس Claudius (٤١ - ٤٥ م) بحقوقهم المدنية ، غير أن الإمبراطور رفض منح الاسكندرية مجلسا لاسناتو (٣) ، واشتد النزاع بين اليهود والإغريق في عهد نيرون (٥٤ - ٦٨ م) ، وقاموا في أيام الإمبراطور تراجان بثورات عديدة ووثبوا على الإغريق وأعمالوا فيهم القتل ، وقد أدت هذه الفتنة إلى تخريب كثير من المنشآت المعمارية في المدينة ، فهدم الحى اليهودى والكنيس الأكبر ، وأحرق اليهود معبدا لليونان ، ودمروا بعض الأبنية (٤) . وأخمست الثورة في عهد الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨) الذى قدم إلى مصر مرتين ، جدد في المرة الأولى ما تخرب من أبنية المدينة واهتم خاصة بمعبد السيرابيوم ، وأقام فيه مدرسة على غرار الميوزيوم أو دار الحكمة ، وكانت لزيارته الثانية سنة ١٣٠ أثر طيب في تهدئة الأحوال .

(١) ابراهيم نصحي : مصر في عصر البطالة والرومان (مقال في الجمل في التاريخ المصرى ص ٩٦) .

(٢) زكى على : الاسكندرية في العصر الروماني ، مجلة الغرفة التجارية ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٧٥ .

ولما قدم الامبراطور سبتيوس سفروس (١٩٣ - ٢١١ م) إلى الاسكندرية ، منحها مجلسا للسناو ، كذلك منح خليفته كراكلا (٢١١ - ٢١٧ م) الإغريق الحقوق المدنية الرومانية .

وكان الدين المسيحي قد بدأ ينتشر في مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية وذلك منذ النصف الثاني من القرن الأول ، وازداد هذا الانتشار بوجه خاص في الاسكندرية إبان القرن الثاني للميلاد ، وأصبح لها كنيسة في هذه المدينة بينما كانت المسيحية تنتشر في الأقطار الأخرى في بطء شديد ، واعتنقها الناس خفية في هذه الأقطار . ويفسر الدكتور عزيز سوريال هذا الانتشار السريع في مصر دون غيرها باستعداد العقليّة المصرية لتقبلها منذ أن أعلن إنخناثون الوجدانية المطلقة (١) .

وأثار انتشار المسيحية مخاوف الرومان ، فعمدوا إلى إضطهاد دعائها ومعتنقيها منذ النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد ، وعلى الأخص في عهد سبتيوس سفروس . وبلغ هذا الاضطهاد ذروته في عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) إلى حد أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ اعتلى دقلديانوس عرش الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٤ م (٢) . وفي عهده اشتعلت نيران الثورة في الاسكندرية ، فحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت ، فخرّب كثيرا من أبنيتها . وأتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الأباطرة لكنيسة الاسكندرية ، إلا أن هذا الاضطهاد لم يثن المصريين عن اعتناق الدين المسيحي فانتشر انتشارا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وكان اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول ٣٢٣ - ٣٣٧ م

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، مقال في مجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٠ - السيد عبد العزيز سالم : الاسكندرية ، دائرة معارف الشعب ، حاشية رقم ١ ، ص ٣٢٨ .

بهذا الدين رسميا كدين من أديان الدولة البيزنطية انتصارا حاسما للمسيحية ،
ومالبث الامبراطور تيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أن اعتنق المسيحية وفرضها
قسرا على رعايا الامبراطورية ، وفي عهده قام البطريك ثاوفيلوس بهدم
المعابد الوثنية في الاسكندرية وتدميرها . وفي سنة ٣٨٩ هدم معبد سراپيس ،
بقرب كانوب ، شرق الاسكندرية (١) .

وأقيمت في هذا العصر عدة كنائس ، منها كنيسة القديس مرقس
البشير على شاطئ الميناء الشرقية ، بالقرب من رأس لوكياس ، وكنيسة القديس
أثناسيوس التي أسست سنة ٣٧٠ في نفس الموضع الذي أقيم عليه جامع
القطارين فيما بعد ، إذ جاء في كتاب وصف مصر Description de l'Egypte
ذكر هذا الجامع باسم جامع كنيسة القديس أثناسيوس . كذلك أقيمت
كنيسة العذراء مريم على يدى البطريك ثيوثاس (٢٨٢ - ٣٠٠ م) على
شاطئ الميناء الغربى ، وتحولت هذه الكنيسة بعد الفتح الاسلامى إلى مسجد
جامع سمي بالجامع الغربى نظراً لقربه من الميناء ، أو جامع الألف عمود الذى
تهدم فيما بعد (٢) .

وكان لانتصار المسيحية الأرثوذكسية السكندرية على الوثنية أثر كبير
فى ارتفاع مكانة هذه المدينة من الوجهة الروحية ، ولم تقبل بيزنطة هذا
الوضع ، وهنا نشأ نزاع مذهبي كبير بين بيزنطة والاسكندرية من أجل
الزعامة الدينية ، ويستمر هذا النزاع السياسى وراء الحدل المذهبي حول طبيعة
المسيح وإرادته الواحدة أو الثنائية . وينقسم المسيحيون إلى طائفتين : أتباع

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، ص ٨١ ، ويذكر الأستاذ
الدكتور عزيز سوريال أن الرهبان بقيادة أثناسيوس استولوا على معبد القيصريوم
٣٥٤ وحولوه إلى الكنيسة المرقسية .

(٢) نفس المرجع ص ٨٣ - جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ص ٢٠٣ ، فؤاد فرج

مذهب الوجدانية البحتة ، ويسمون بالمونوفيزيت أو اليعاقبة ، وكان هؤلاء يتبعون كنيسة الاسكندرية ، ثم أصحاب مذهب الطبيعتين ويسمون بالدوفيزيت أو الملكانيين ، وكانوا يتبعون كنيسة بيزنطة . واحتدم النزاع بين الفريقين ، وتدخل الأباطرة في هذا النزاع ، وعقد الامبراطور مارسيان مجمعا دينيا في خلقدونية عام ٤٥١ أقر فيه مذهب الملكانيين ، وقرر أن مذهب الوجدانية كفر والحاد وخروج عن الدين الصحيح ، وقرر طرد ديسقورس بطريرك الاسكندرية من الكنيسة ونفيه . ولم يقبل المصريون هذه القرارات ، وأعلنوا عصيانهم لها ، وتحول النزاع إلى تحد مجيد من جانب المصريين ، وتسمى هؤلاء بالأرثوذكسين أى أصحاب الدين الصحيح . وأمعن الأباطرة في سياستهم التعسفية ، فانتقل مركز الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الاسكندرية ، وكان من أكبر زعمائها الأنبا شنودة والبطريرك بنيامين . ولقد كان لإسراف البيزنطيين في اضطهاد المصريين أثر كبير في معاداة المصريين لهم وفي تمهيد السبيل لفتح العرب لمصر .

الفصل الثاني

الاسكندرية منذ فتح العرب لمصر
حتى العصر الفاطمي

الفصل الثاني

الاسكندرية منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الفاطمي

لما افتتح عمرو بن العاص حصن بابليون سنة ١٩ هـ ، انفتح أمامه الطريق إلى الاسكندرية ، عاصمة الديار المصرية . فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الاسكندرية ، وسار إليها في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ . بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم (١) واشتبك عمرو مع الروم في نقيوس ، ثم في سلطيس ، وانهزم الروم في كل من هاتين القرينتين . ثم التقى عمرو بالروم في الكريون ، وكانت أهم معقل بيزنطى أمام الاسكندرية ، وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام ، وانتهت بانتصار عمرو على تيودور انتصارا حاسما تراجع الروم على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير (٢) . وتحصن الروم في الاسكندرية ، وكان عليها أسوار محكمة البناء . وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الاسكندرية لمناعتها فأثر أن يترك عليها فرقة للرباط ويسير هو على رأس جيشه لفتح بقية الوجه البحرى .

وذكر الكندى أن عمرو حاصرها مدة ثلاثة أشهر ، ثم فتحها عنوة ، وأن هذا هو الفتح الأول ، وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص أقام على حصار الاسكندرية عدة أشهر ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : ما أبطأ بفتحها

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٢٧ .

(٢) السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢ ، محمود عكوش : مصر في عهد

الاسلام ص ١٢٩ .

إلا لما أحدثوا (١). وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص فتح الاسكندرية عام ٢٠ هـ، وخلف بها ألف رجل من أصحابه "ومضى ومن معه في طلب من هرب من الروم في البحر، فرجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الاسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا، ففتحها وأقام بها (٢). وذكر المقرئ أن عمرو ضرب الحصار على الاسكندرية مدة ١٤ شهرا، منها تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وأن فتحها تم في أول محرم سنة ٢١ هـ (٣).

وساعد على فتح العرب للاسكندرية موت الامبراطور هرقل، وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته في ٢٣ صفر سنة ٢٠ هـ (١١ فبراير سنة ٦٤١ م)، وقيام المنازعات في القسطنطينية من أجل العرش، مما اضطر الروم إلى العمل على إنهاء الحرب وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية. ونقل لين بول ما ذكره حنا النقيوسي إذ يقول: "إن البطريرك قيرس الذي عاد من القسطنطينية ويده تفويض من الامبراطور يخوله عقد الصلح مع عمرو، ذهب إلى عمرو في بابلون ليفاوضه في الصلح. وقد تم الاتفاق بينهما على أن يدفع أهل الاسكندرية للعرب جزية شهرية، وأن يقدموا لعمرو ١٥٠ جنديا و ٥٠ مدينا بمثابة رهائن، وأن يتعهد المسلمون بعدم التدخل في شئون المسيحيين وكنائسهم، والسماح لليهود بالبقاء في الاسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة ١١ شهرا خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم. ووقعت المعاهدة بين الطرفين في طليعة نوفمبر سنة ٦٤١، وتم إبحار الروم في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م" (١).

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : طبعة ليدن ص ٧٨ .

(٢) السيوطي ج ١ ص ٥٢ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٦٥

(٤) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 11

وكتب عمرو إلى عمر بعد ذلك يقول : " أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر " (١) . وذكروا أنه كان بها من الحمامات اثني عشر ديماسا ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها يسع جماعة نفر . وروى عثمان بن صالح عن ابن لهيعة أن " عمرو بن العاص بعث معاوية بن حديج وافدا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معي كتابا . قال عمرو وما تصنع بالكتاب أأست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت . فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا (١) وقال : الحمد لله .

ولما تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية فكر في اتخاذها حاضرة لمصر الاسلامية ، وذلك لما شاهده من حسن عمارتها ، وروعة تخطيطها ، وكثرة دورها التي تركها أصحابها عندما جلوا عن الاسكندرية إلى بلاد الروم ، فاستولى عليها الفاتحون العرب ، وصارت لهم أخاذا تغنيهم عن بناء دور جديدة . ويذكر المؤرخون العرب ، أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك وكتب إليه قائلا : " مساكن قد كفيناها " (٣) . ولا شك أن تفكير عمرو في اختيار الاسكندرية عاصمة له في مصر كان أمرا طبيعيا في الوقت الذي لم يكن العرب فيه على استعداد لتأسيس مدينة جديدة ، ثم أن الاسكندرية

(١) القرينى : الخطط ج ١ ص ١٦٦ ، السيوطى ج ١ ص ٥٤ ، ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأنصار ، ج ٥ ص ١٢٥ .

(٢) السيوطى : حسن الحاضرة ج ١ ص ٥٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص

(٣) السيوطى ج ١ ص ٥٧ .

كانت تعتبر المدينة الأولى في مصر منذ أسسها الاسكندر حتى افتتحها العرب ، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق ، كثيرة الخيرات ، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة (كالمنارة وعمود السوارى والمعابد والقصور والصهاريج والحمامات) ، وبتخطيطها الرائع ، يضاف إلى هذا موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام الذى هيا لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب . كل هذه المميزات كانت كفيلة باختيارها عاصمة لمصر الاسلامية ، ولكن المقرئ يزى يذكر نصا رواه ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو أرسل يستشير عمرو بن الخطاب فى اختياره للاسكندرية . فسأل عمرو رسول عمرو إليه سؤاله المعروف : ” هل يحول بينى وبين المسلمين ماء “ فلما أجابه الرسول بالإيجاب كتب إلى عمرو يأمره باختيار مكان آخر لا يفصله عنه ماء فى شتاء ولا صيف ، وأنه كتب كذلك إلى سعد بن أبى وقاص فى مدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، ألا يجعلوا بينه وبينهم ماء متى أراد أن يركب راحلته اليهم حتى يقدم عليهم فعل . فعزل سعد عن اتخاذ المدائن حاضرة للمسلمين ، وانتقل منها إلى الكوفة على الجانب الغربى من الفرات ، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذى نزل فيه إلى البصرة ، حيث تلتقى بها الطرق الآتية من نجد والشام وإيران ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى القسطنطينية (١) .

والواقع أن عدول عمرو عن اختيار الاسكندرية كان منطقيا إلى حد بعيد ، فالاسكندرية ميناء بحرى لا بد أن يتخذ قاعدته له من التفوق فى

(١) المقرئ يزى : الخطط ج ١ ص ٢٨٦ — السيوطى ج ١ ص ٥٧ — عبد الرحمن

زكى : عواصم مصر الاسلامية من كتاب « فى مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ ص

٩٩ ، ١٠٠ — جمال الشيال : القسطنطينية الاداب جامعة الاسكندرية المجلد ١٢

سنة ١٩٥٨ ص ١٢٤ .

الشؤون البحرية . وكان البطالة والرومان عارفون بأمور البحر ، ملمون بأصول الملاحة ، وكانت لهم الأساطيل البحرية ، لذلك اتخذوا الاسكندرية عاصمة لهم . أما العرب فكانوا أبعد العالم إلما بالاشؤون البحرية باعتبارهم بدوا يعيشون في الصحراء ولا يحاربون إلا برا ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : ” والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته (البحر) وركوبه والروم والافرنجة لمارسهم أحواله ومرباهم في التغلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته “ (١) .

كما أن الاسكندرية بوقعها على البحر ، وباحاطتها بالبساتين من الشرق والغرب ، كانت سهلة المنال على العدو . وفي ذلك يقول ابن خلدون أيضا : ” ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد ، تكون صريحا للمدينة متى طرقها طارق من العدو ، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعر من الجبل ، كانت في غرة للبيات ، وسهل طرقها في الأساطيل البحرية على عدوها ، وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها ، . . . وهذه كالاسكندرية من المشرق ، وطرابلس من المغرب ، وبونة وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير ، وكانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسمنتها ، كان لها بذلك منعة من العدو ، ويئسوا من طرقها لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبته وبجاية وبلد القل على صغرها “ (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٨ : يذكر ابن خلدون أيضا أن عمر طلب من عمرو بن العاص بعد فتح مصر أن يصف له البحر فقال : إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على دود . فأوعز عمر حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه (أنظر المقدمة ص ٢٧٧) .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٥ .

لذلك لم تكن الاسكندرية عند عمر بن الخطاب جديرة بالاختيار كعاصمة لمصر الاسلامية . ويذكر المقرئى أن عمر بن الخطاب كان يحرص على تحصين الاسكندرية وعلى الدفاع عنها " فكان يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكلف مرابطها ولا يأمن الروم عاها " (١) .

وهكذا أصبح من الضرورى أن يبحث عمرو بن العاص عن عاصمة أخرى لمصر الاسلامية، فى موضع حصين قريب من بلاد الشام، تسهل منه الإتصالات البرية مع بقية الأقاليم الاسلامية، حتى يسهل الدفاع عنها، وتأتيها النجدة حين تتخرج الأمور ، ووقع اختياره أخيرا على القسطنطينية ، وكانت تتوفر فيها كل هذه الصفات .

وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب بخصوص الماء الذى يفصل بينه وبين المسلمين منطقيا يدل على بعد نظره وحسن بصيرته ، لأن الإسكندرية أصبحت بوقوعها على البحر مدينة مهددة بالغزو من البحر ، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم افتتاحها بحرا فى أوائل عام ٢٥ هـ (أواخر عام ٦٤٥ م) ولما عجز على فتحها أربع سنوات . ذلك أن الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى Constans II هاله ما رآه من فتوحات العرب فى الشام ومصر وبرقة ، فأراد أن يسترد مصر والشام من المسلمين معتمدا على قوته البحرية (٢) ، وانتهز فرصة جهل العرب بأمور البحر وافتقارهم إلى الأساطيل وعمد إلى مفاجأتهم فى الاسكندرية واحتلالها ، لتكون قاعدة بيزنطية لإخراج العرب من مصر (٣) . وأراد قنسطانز أن يشغل المسلمين

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) ابراهيم أحمد العدوى : الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم القاهرة ١٩٥٨ ص ٦١ .

(٣) ابراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٥٥ .

في الشام عن الدفاع عن الاسكندرية ، فأرسل حملة أخرى للإغارة على شواطئ الشام في نفس الوقت الذي أغار فيه على الاسكندرية ، ولكن هذه الحملة على الشام لم يكتب لها النجاح ، إذ تصدى لهم جيش معاوية والى الشام وهزمهم هزيمة نكراء . وأعد قنسطانز سفنه وأساطيله ، وقيل أنه أرسل إلى الإسكندرية ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة (١) ، وجعل على رأس هذه الحملة قائده مانويل الذي يسميه مؤرخو العرب منويل الحصى . وكان والى مصر إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان . ولما أرسى أسطول الروم بالاسكندرية ، انتقض سكان الاسكندرية من الروم على المسلمين ، وانضموا إلى بني جنسهم ، وفوجئ المسلمون بنزول الروم في الاسكندرية فأسلمت المدينة للروم بدون مقاومة ، وزحفت جيوش الروم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقي متجهة إلى القسطنطينية ، فطلب أهل مصر من عثمان أن يقر عمرو بن العاص على قيادة جيش المسلمين لقتال الروم " فإن له معرفة بالحرب وهيبة في قلب العدو " (٢) . وترك عمرو أعداءه يتقدمون في البلاد ، ينزلون القرى فيشربون خمرها ، ويأكلون أطعمتها ، وينهبون ما مروا به ، وبذلك اكتسبوا عداوة الأهالي من القبط ، فلما بلغوا نقيوس صدمهم المسلمون صدمة عنيفة ، واشتبكوا معهم في قتال شديد ، وحمل مانويل على جيش عمرو ورماه بالنشاب ، وانهزم شريك بن سمى في خيله (٣) . وما زال عمرو يقاتلهم حتى هزمهم ، فراجعوا إلى الاسكندرية ، وتحصنوا بها ، ونصبوا الخنادق والعرادات على أسوارها ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب الخنادق فأخذت جدرانها (٤) ، ولكن

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٩ .

(٢) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٦٧ - السيوطي ج ١ ص ٧٠ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٦٧ - السيوطي ج ١ ص ٧٠ - ابن

عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٨ .

(٤) البلاذري ص ٢٢٩ .

الروم قذفوا عمرا وجيشه بالحجارة ، وقامى العرب كثيرا أثناء حصارهم للمدينة ، وتدم عمرو على تركه أسوار الاسكندرية سايمة بعد أن افتتحها سنة ٢١ هـ ، فأقسم لئن استولى على المدينة هذه المرة ليهدم الأسوار ، ويجعل الاسكندرية " كبيت الزانية يوثى من كل مكان " (١) . ولا شك أن عمرا لقي في اقتحام المدينة صعوبات جمّة ، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد عناء شديد ، فأعمل السيف في حامية الروم ، وقتل القائد البيزنطى مانويل وعددا كبيرا من رجاله ، وقيل إنه أمر برفع السيف عن الباقيين ، وبني في ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا سماه مسجد الرحمة ، وهدم سور المدينة كله (٢) . ونجح العرب في إحراق عدد كبير من سفن الروم . وهكذا استطاع عمرو أن يقضى على حملة الروم البحرية .

وكادت الاسكندرية تتعرض ٣٤ هـ مرة ثانية لغزو الروم ، فان الإمبراطور قسطنتر الثانى لم ينس هزيمة جيوشه فى الاسكندرية سنة ٢٥ هـ ، ثم إن العرب كانوا قد اضطنعوا فى خلال هذه السنوات العشرة سياسة بحرية ، إذ دفعهم إلى ذلك الأخطار التى تعرضت لها ثغورهم فى مصر والشام . وفى ذلك يقول ابن خلدون : " فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ... " (٣)

(١) القرىزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ - السيوطى ص ٧٠ .

(٢) القرىزى ج ١ ص ١٦٧ ، السيوطى ج ١ ص ٧٠ ، البلاذرى ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧٨ .

وبدأ العرب ينافسون الروم في ركوب البحر ، فتغلبوا على قبرص ورودرس ، وأغاروا على كريت ، وأراد معاوية مهاجمة القسطنطينية ، فأثر قنسطانز أن يبدأ هو بالهجوم ، والتقى الأسطول المصرى والشامى مع الأسطول البيزنطى بالقرب من مياه الاسكندرية فى موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذى الصواري ، وانتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم هزيمة شنعاء (١) . من ذلك كله نعلم أن موقع الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط كان موقعا يعرضها لخطر الغزو البحرى ، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها ، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع القسطنط وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد يستطيع منه الاشراف على مصر العليا ومصر السفلى .

* * *

يتفق المؤرخون العرب على أن عمرو بن العاص هدم أسوار الإسكندرية كلها بعد أن دخلها سنة ٢٥ هـ ، وقضى فيها على مانويل ورجاله (٢) . إلا أن هذا القول فيه بعض المغالاة ، فإن عمرا لم يهدم السور كله كما تذكر الروايات العربية ، فقد كان العرب ينحشون الروم عليها ، ويعتبرونها بابا مفتوحا لنزولهم بأرض مصر (٣) . ولذلك تركوا سورها الشمالى ، ويرجح الدكتور جمال الدين الشيال أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبان هذا الفتح الثانى للمدينة ، ويعتقد

(١) ارجع إلى الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٠ - السيوطى ج ١ ص ٧١ - المقرئى ج ١ ص ١٦٩ - حسين مؤنس : أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية مايو ١٩٥١ ص ٩٠ - ٩٤ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٦٨ ، السيوطى ج ١ ص ٧٠ - البلاذرى ص ٢٢٩ .

(٣) عبد الهادى شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، مقال بكتاب الغرفة التجارية سنة ١٩٤٩ ص ٨٦ .

أن ما زعمه المؤرخون العرب لا يعدو أن يكون قالة ظالمة أو افتراء على عمرو (١). غير أننا لا نستبعد أن يكون قد هدم الأجزاء الجنوبية، والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية، من أسوار المدينة بعد دخوله لها، حتى يقضى بذلك على كل محاولة للثورة والانتفاض، خاصة وأن العرب كانوا في بداية عهدهم في مصر حديثي عهد بنظم الثغور والمدن الساحلية، ولم تكن لهم وقتئذ أساطيل تدافع النصارى، وتردهم عن موانئهم. ولذلك أقاموا اختارس والنواظير على نحو ما سندكره فيما بعد. على أنه استبقى من الأسوار الرومانية القديمة أهم أجزائها المعرضة للغزو البحري، يدل على ذلك ما ذكره على مبارك في الخطط التوفيقية، وفقاً لما أسفرت عنه أبحاث محمود باشا الفلكي، من أنه تتبع آثار السور القديم من برج السلسلة (رأس لوكياس) إلى الحفرة مسافة ٣ كم. وتبين له أن هذا السور كان يمتد من برج السلسلة غرباً إلى الميناء الغربية بحذاء الساحل، كما تتبع الفلكي باشا هذه الآثار ورسم السور المذكور (٢). ويذكر على مبارك أيضاً أن أحمد بن طولون عندما جدد أسوار الاسكندرية، هدم الأسوار القديمة حاشاً ما كان من جهة البحر والغرب، فقد أبقى عليه مع بعض التغيير (٣). كذلك نستنتج مما ذكره البلاذري في موضع آخر أن عمرو اكتفى بتخريب سورها (٤).

ولا شك أن الاسكندرية تأثرت بهدم أسوارها، فأخذت في الاضمحلال على أثر الفتح العربي، وانكشت رقعتها، خاصة بعد أن هجرها عدد كبير من

(١) جمال الدين الشيال : الاسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها، من كتاب الغرفة التجارية ص ٢٠٩.

(٢) على مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها بولاق سنة ١٣٠٥ هـ الجزء السابع ص ٣٥، ٣٦.

(٣) نفس المرجع ص ٤٣.

(٤) يقول البلاذري : « فلما كان قتالها الآخر وقدمها منوئل الرومي الخنصي أغلقها أهلها، ففتحها عمرو وأخرب سورها ». ص ٢٣٠.

سكانها الروم ومع ذلك فقد أولاها الخليفة عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان من بعده ، عناية كبرى ، لأنها كانت معرضة للهجوم من البحر ، وكانت أصلاً موانئ مصر لنزول العدو . لذلك اعتبرها المسلمون ثغراً من الثغور الإسلامية التي يجاهدون فيها ، وقسم عمرو أجناده إلى قسمين متساويين : قسم أبقاه معه في القسطنطينية ، وقسم وزعه إلى نصفين : نصف لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الثاني في سائر السواحل ، ” وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، فكانت الولاة لا تغفلها وتكشف رابطتها ولا تأمن الروم ، عليها “ (١) كذلك اهتم عثمان بن عفان بالاسكندرية ، فكتب إلى عبد الله بن سعد : ” قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الاسكندرية رابطتها ثم أجرى عليهم أرزاقهم وأعقب منهم في كل ستة أشهر “ (٢) . وهكذا نزل الجند في الاسكندرية منذ الفتح العربي ، ونزح إليها العرب طامياً لثواب الهجرة وأجر الجهاد ، فقد ذكر صاحب كتاب ” الرسالة العوفية في فضل الاسكندرية “ عن سعيد بن جبير عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل سعيداً من أين جئت (وقد كان لقيه بالشام) فقال من الاسكندرية ، فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن المقيم بها ثلاثة أيام من غير رياء كمن عبد الله تعالى سبعين سنة ما بين الروم والعرب (٣) . ورووا عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله قال : الاسكندرية وعسقلان عروستان والاسكندرية أفضلهما وإنها لتأتي يوم القيامة تزف بأهلها إلى بيت المقدس ، فمن رابط بالاسكندرية أربعين يوماً كتب له الله براءة من النار ، وأمننا من العذاب . وذكروا أن الربيع بن خنيم ، قال

(١) السيوطي ج ١ ص ٧١ - المقرئ : الخطط ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيوطي ج ١ ص ٧١ .

(٣) ابن دقاق ج ٥ ص ١١٦ .

قدمت على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال لي ألا تدخل معنا فيما نحن فيه فقلت : ما جئتك لأكون معك ، ولا عليك ، ولكن أحب أن تخبرني بأفضل الأعمال ، فقال له علي رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاسكندرية وقزوين بابان من أبواب الجنة من رابط في إحدهما ليلة وجبت له الجنة » (١) .

وهكذا قرن المسلمون إسم الاسكندرية بالثواب والجهاد والجنة حتى عمرت بمن وفد إليها منهم ، وازداد عدد الحامية المرابطة من ثلاثة آلاف أول الأمر إلى ١٧ ألف أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألف (٢) . ومن نزلها من الصحابة سرق بن أسيد ويعرف بأسد الجهنى ، ويقال له الديلمى وسفيان بن هانيء بن جبير أبو سالم الجيشاني (٣) ، والمستورد بن سلامة بن عمرو الفهرى ، ومسلمه بن محمد (٤) . وكانت سواحل الاسكندرية مزودة بالرباطات ، أى المحارس التى يقيم فيها المجاهدون ، ويقول ابن رسته " بالاسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها ، تسمى المحارس " (٥) فاذا شاهد الحراس بأعلى المحارس سفنا للعدو بادروا بانذار الجند لمقابلتهم وكانت حامية الاسكندرية تنقسم إلى عرافات لكل عريف قصر أو دار ينزل فيه بمن معه من أصحابه فتكون الدار الواحدة لقييلتين أو ثلاث قبائل (٦) .

وكان طبعيا أن يقوم المسلمون فى الاسكندرية ببناء المساجد الجامعة التى كانت تتخذ ، بالإضافة لها وظيفتها الأولى ، مراكز للاجتماعات العلمية

(١) ابن دقاق ج ٥ ص ١١٧ أنظر أيضا ما رواه السيوطى ج ١ ص ٧١ .

(٢) عبد الهادى شعيرة : المرجع السابق ص ٨٦ .

(٣) السيوطى ج ١ ص ٨٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٩٨ .

(٥) ابن رسته ص ١١٨ .

(٦) ابن دقاق ص ١١٨ — عبد الهادى شعيرة ص ٨٨ .

والسياسية . ويذكر المؤرخون أنه أقيم في الاسكندرية في القرن الأول للهجرة خمسة مساجد هي : مسجد موسى عليه السلام عند المنار ، ومسجد سليمان عليه السلام (عند القيسارية) ومسجد ذي القرنين (يرجح أنه كان يقع بالقرب من قبر الاسكندر) ، ومسجد الخضر ، ومسجد عمرو بن العاص الكبير ، ويعرف أيضا بمسجد الرحمة ، وسمى كذلك لأنه أقيم في نفس الموضع الذي توقف فيه عمرو عن قتل أهل المدينة عندما افتتحها عنوة سنة ٢٥ هـ (١) . ويغلب على الظن أن مسجد الخضر المذكور قد أخطأ المؤرخون في كتابته ، ولعله الجامع الأنخضر ، أو الجامع الغربي ، أو جامع الألف عمود ، وكان الداخل من باب المدينة الغربي وهو الباب الأنخضر يشاهده عن يمينه ، وكان ما يزال قائما عند دخول الفرنسيين أرض الاسكندرية . ولقد أقيم هذا المسجد على أنقاض كنيسة (٢) العذراء مريم التي كان قد بناها البطريرك ثيودور (٢٨٢ - ٣٠٠ م) على شاطئ الميناء الغربي . ويضيف الدكتور شعيرة إلى هذه المساجد المذكورة مسجدا سادسا هو مسجد المنارة الذي كان يربط فيه متطوعة المصريين وغيرهم (٣) . أما جامع الخضر المذكور فلعله كان يقع عند القيسارية ، ولقد ذكر السيوطي أن مسجد الخضر مسجداً أحدهما القيسارية والآخر عند باب المدينة (٤) .

* * *

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ . ذكر ياقوت أن مسجد الرحمة يقع عند عمودين يعرفان بالمستين (معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٦) أي عند معبد القيصريوم .

(٢) E. Combe: Le texte d'Al-Nuwairi, B. F. A. A. vol. III, 1946, p. 110, Note I

عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٨٣ ، على مبارك : الخطط التوفيقية

ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) عبد الهادي شعيرة ص ٨٦ - جال الدين الشيال ، الاسكندرية ص ٢١٢ . نلاحظ أن هذا الجامع الذي بالمنارة من بناء الملك الكامل (أنظر السيوطي ج ١ ص ٣٩) .

(٤) السيوطي ج ١ ص ٣٧ .

(٤)

تشير بعض المصادر العربية إلى أن إعادة بناء أسوار الاسكندرية تم في عصر أحمد بن طولون (١) ، ولكن هذه الأسوار الحديدية لم تطوق المدينة القديمة كلها ، وإنما اقتصرَت على إحاطة المناطق المأهولة بالسكان فحسب ، فقد أخرجت من السور منطقتان كبيرتان في شرق المدينة وجنوبها ، والمنطقة الشرقية كانت تضم مقابر اليونان والرومان ، والمنطقة الجنوبية كانت تضم بعض المزارع وأطلال معبد السرايوم (٢) بجانب بعض الآثار الرومانية التي يشرف عليها عمود السواري. وهكذا تقلصت رقعة المدينة (٣) ، وإن كانت ما تزال تحتفظ بنظامها اليوناني الروماني . وليس معنى ذلك أن الاسكندرية قد فقدت مكانتها إلى الأبد ، ولكنها ظلت محتفظة بازدهارها القديم . وكل ما في الأمر أنها أصيبت بنكسة قصيرة الأمد بعد أن افتتحها العرب ، ودمروا أسوارها ، وأجلوا عنها سكانها الروم . ولم يؤثر تركيز الحكومة الإسلامية في العاصمة الحديدية الفسطاط في ازدهار الاسكندرية ، فلم تكد تمضي موجة الفتح العربي حتى أخذت الاسكندرية تستعيد مكانها ، ففي عهد عبد الله بن سعد استأنفت دار الصناعة القديمة بالاسكندرية نشاطها في إنتاج السفن ، كما استأنفت دار الطراز الرومانية إنتاج ما اشتهرت به الاسكندرية من منسوجات كتانية حتى ، قيل إن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها ، وتحمل إلى أقطار الأرض ، وكانت هذه المنسوجات تعرف باسم الشرب (٤) . كذلك احتفظت الاسكندرية بمركزها التجاري القديم ، فكانت أهم مركز

(١) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٣ .

(٢) جمال الشيال ، الاسكندرية ص ٢١٠ .

(٣) يقول علي مبارك : أن مساحة المدينة في زمن ابن طولون أصبحت أقل من نصف مساحتها في زمن الرومان (الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٤) .

(٤) عبد الهادي شعيرة ص ٩٠ ، سيدة الكاشف : مصر في عصر الولاة

لتجارة البهار بالنسبة لدول أوروبا (١) ولعل ذلك كان سببا من أسباب تسمية أحد أبوابها وهو الباب الجنوبي بباب البهار . وكانت البضائع تصل إليها ، ثم تنتقل بالسفن في خليج الاسكندرية حتى تصل إلى النيل ، ومن القسطنطينية إلى القلزم ، عن طريق خليج أمير المؤمنين . وكانت علاقة مصر قد توثقت في العصر العباسي مع البندقية التي نهضت خلال القرن الثالث الهجري ، فنشطت أساطيلها في نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام . واستطاع البنادقة فيما يقرب من عام ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) أن ينقلوا رفات القديس مرقس من الاسكندرية إلى البندقية ، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية (٢) .

وبجانب هذه الأهمية الاقتصادية لعبت الاسكندرية دورا هاما في الوقائع والأحداث التاريخية في العصر العباسي ، وأهم هذه الوقائع التجاء أهل ربض قرطبة إليها بعد أن نفاهم عنها الأمير الحكم بن هشام ، واستقلاهم فيها عدة سنوات . فلقد وصل الربضيون إلى هذه المدينة سنة ٢٠٠ هـ في وقت كانت الفوضى ضاربة أطنابها بمصر ، وكانت الاسكندرية نفسها عرضة لغارات العرب من قبيلتي لحم وجذام ، واستغل الربضيون هذه الفرصة واستولوا على الاسكندرية ، وتحالفوا مع اللخمين والصوفية ، وأقاموا على ولاية المدينة أبا عبد الرحمن الصوفي ، فأساء الحكم ، وانتشر الفساد ، حتى ضاق به الربضيون ، فعزلوه ، وولوا مكانه واحدا منهم اسمه الكنانى ، وكان آخر ولايتهم عمر بن شبيب الباطنى . وفي هذه الأثناء قائد المأمون قائده عبد الله بن ظاهر ولاية مصر ، فتغلب على ابنى السرى ، واستتب الأمر له في مصر ، ولم يبق له سوى استرداد الاسكندرية من أيدي الربضيين ، فسار إليها في قواته في طليعة صفر سنة ٢١٢ هـ (مايو ٨٢٧) ، وضرب عليها الحصار مدة عشرة أيام ، فاضطر الربضيون إلى مصالحته ، وقبلوا شروطه ، وتلخص في أن يغادروا

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) فييت : المواصلات في مصر ، مقال في كتاب « في مصر الاسلامية » ص

المدينة إلى حيث يشاءون، وألا يستصحبوا أحدا من أهل مصر في مراكزهم،
وألا ينزلوا بلدا خاضعا للدولة العباسية . وهكذا رحل الربضيون عن
الاسكندرية ، واستقروا بجزيرة إقريطش ، وأسسوا فيها دولة دامت نحو
١٣٥ سنة، ونشروا فيها الاسلام، وأسسوا المدن، وأنشأوا قاعدة لحكمهم هي
مدينة الخندق، التي سميت بعد ذلك باسم قندية، وانتهى أمر هذه الدولة بتغلب
الامبراطور رومانوس الثاني عليها في ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) (١) .

وكانت الاسكندرية في هذا العصر أشبه بولاية قائمة بذاتها ، إذ كان
يقوم بإدارتها وال شبه مستقل، فلما تولى أحمد بن طولون ولاية مصر كلها ،
سار إلى الإسكندرية وتسليمها من اسحق بن دينار ، فأقره واليا عليها .
وشهدت الاسكندرية بعض الازدهار في عصر الدولة الطولونية ، فلقد
عنى ابن طولون بها عناية كبيرة ، فقام بترميم منارها المشهور بعد أن تهدم
طابقه الأعلى بفعل الزلازل (٢)، فجعل مكانه قبة من الخشب " ليصعد إليها
من داخلها، وهي مبسوطة مؤربة بغير درج " (٣) وإليه يرجع الفضل في
تجديد أسوارها القديمة بعد أن ظلت مفتوحة للدخول إليها والخارجين منها
ما يزيد على قرنين من الزمان ، وفتح في هذه الأسوار أبوابا تقابل الأبواب
القديمة ، فالباب الشرقي سمي باب رشيد أو باب القاهرة ، وفتح في السور
الغربي بابا هو باب القرافة وفي الجنوب باب السدرة أو العامود . أما الباب
الشمالي فظل كما كان من قبل مشرفا على الميناء الشرقية (٤) .

(١) ارجع إلى مقال صديق شيبوب . جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مجلة
الكتاب فبراير سنة ١٩٤٩ ص ٢٢٦ — ٢٣٦ ، سيدة الكاشف : مصر في عصر
الولاة ص ٩٧ — ١٠٠ ، إبراهيم أحمد العدوي : الأساطيل العربية في البحر الأبيض
ص ٩٢ — ٩٧ ، إبراهيم أحمد العدوي : الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم ص
١٠٧ — ١١٠ ، عبد العزيز سالم : الحكم الربضي ، في دائرة معارف الشعب العدد
٦٧ ص ٢٦٢ — ٢٦٤ ، حسين مؤنس : أثر ظهور الاسلام ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) حدث هذا الزلزال عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ — ٧٩٧ م) .

(٣) السعودي : كتاب التنبيه والإشراف ص ٤٣ .

(٤) جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافيتها ص ٢١٠ .

الفصل الثالث

الاسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي

الفصل الثالث

الاسكندرية في العصرين الفاطمي والأيوبي

لم يمض على تأسيس الدولة الفاطمية بأفريقية " المغرب الأدنى " خمس سنوات ، حتى طمع عبيد الله المهدي في غزو مصر ، لموقعها الجغرافي الهام ، و ثرائها الوافر ، وصلاحياتها لأن تكون مركزا للدعوة الشيعية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية . وشرع في تنفيذ رغبته منذ عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) عندما أعد جيشا ضخما بقيادة ابنه أبي القاسم ، وحباسة بن يوسف ، أحد زعماء بربركتامة الذين اعتمد عليهم الفاطميون في تأسيس دولتهم في بلاد المغرب . وتقدم الجيش الفاطمي شرقا نحو مصر ، واستولى في طريقه إليها على برقة ، وواصل زحفه حتى دخل الاسكندرية ، واستولى عليها بدون مقاومة . ويبدو أن أهل الإسكندرية كانوا يميلون إلى الفاطميين ويعطفون على دعوتهم ، فلقد ناصر أهل الاسكندرية العلويين حين اضطهدهم المتوكل ومن تبعه من الخلفاء (١) ، وفتحت الإسكندرية أبوابها لأهل لوبية ومراقبة (٢) . ويغلب على الظن أن دعاة الاسماعيلية في مصر قد نجحوا في مهمتهم نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، إذ أعدوا أهل البلاد لتقبل الفتح الفاطمي . غير أنه لم يقدر لجيش الفاطميين أن يستولى على مصر في هذه المرة ، إذ أن الخليفة العباسي المقتدر بالله لم يتردد حين علم بدخول المغاربة الاسكندرية

(١) عبد الهادي شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربي ص ٩١ .
(٢) المقرئ الخطط ج ١ ص ١٧٤ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٤ - ١١٥ .

فى إرسال جيش كثيف إلى مصر، جعل على مقدمته مؤنس الخادم . واستطاع مؤنس الخادم أن يهزم جيش المغاربة فى موقعة مشتل بالقرب من الحيزة ، ويرغمهم على العودة من حيث أتوا .

وعاود الفاطميون الكرة مرة أخرى عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م)، واستولى أبو القاسم بن عبيد الله المهدي على الاسكندرية فى صفر سنة ٣٠٧ هـ ، وتوغلت قواته فى الدلتا حتى وصلت الأشمونين والفيوم ، وهناك اشتبكت مرة ثانية مع قوات العباسيين والانشيدين، فدارت الدائرة على الجيش الفاطمى ، وأحرق عدد كبير من سفن الأسطول الفاطمى ، كما قتل وأسر معظم رجال الجيش (١) . ثم كانت المحاولة الثالثة سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) وفيها دخل الجيش الفاطمى الاسكندرية فى ربيع الآخر سنة ٣٢٤ هـ فى عهد الانشيد ، الذى استطاع أن يتغلب على الفاطميين ويرغمهم على العودة إلى بلاد المغرب .

وأخيرا نجح جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله فى الاستيلاء على الاسكندرية (٢) وأرست قطع الأسطول الفاطمى فى مياهها فى رجب سنة ٣٥٨ هـ (يونية سنة ٩٦٩ م) . واشتبك جوهر مع الانشيديين والكافورية بقيادة نجرير الأرغلى وعين الطويل بالقرب من القسطنطينية ،

(١) نفس المرجع ص ١١٥ ، جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٨ .

(٢) يذكر المقرئى نقلا عن أبى محمد الحسن بن زولاق ، أنه « لما قربت العساكر من الاسكندرية جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الحسن بن الفرات الناس وشاورهم ، فاتفقوا على مراسلة جوهر وأن يشترطوا عليه شروطا وأنهم يسمعون له ويطيعونه ، ثم اجتمعوا على محاربته ، ثم انحل ذلك وعادوا إلى المراسلة بالصلح . . » ثم خرج وفد من قضاة مصر فلقوا جوهرًا يتروجة : (بالبحيرة) فأجابهم إلى ملتصقهم . (أنظر أتعاض الحنفا بأنخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ١٩٤٨ ص ١٤٧ .

وانتهى الأمر بفتح الفاطميين للعاصمة المصرية . وفي ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٢٩ مايو سنة ٩٧٣ م) وصل المعز لدين الله إلى الإسكندرية قادما من المهديّة ومنتجها إلى القاهرة مقره الجديد ، ودخل المعز مدينة الاسكندرية وهو ممتط جواده ، فاستقبله القاضي أبو طاهر محمد بن أحمد وأعيانها ، فجلس الخليفة المعز عند المنارة في ذلك اليوم وخطب فيهم خطبة طويلة ووعظهم ، فبكى وأبكى (١) .

ومنذ ذلك الحين عظمت الاسكندرية وتألفت ، واستعادت ازدهارها في القديم ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر وثغرها المنيع الذي تفد إليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب ، ومنها تنقل إلى القسطنطينية ، ولذلك نافست الاسكندرية بغداد في الزعامة التجارية (٢) . كما أنها أصبحت قاعدة للأسطول الفاطمي في البحر المتوسط ، وكانت بذلك محط الأساطيل العربية القادمة من المغرب والأندلس إلى شواطئ الشام ومصر (٣) ، ويذكر البكري أن سفن المغرب كانت تفد من ثغور المغرب إلى الاسكندرية حاملة المتاجر المغربية إليها . ويتضح لنا مما ذكره أن هذه السفن كانت تسير بجذء الساحل الإفريقي وكانت ترسو بثغور هذا الشاطئ حتى تصل إلى الإسكندرية ، ومنها كانت

(١) عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية منذ الفتح العربي ص ٩١ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٠ ، جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٤١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن ص ٦١٠ . يذكر هايد أن الاسكندرية كانت ترتبط تجاريا مع بلاد أوروبا مثل مدينة أمالفى التي كان لها فنادق كثيرة في الاسكندرية ، ومثل مدينة جنوة التي كانت لها جالية من أكبر الجاليات الأجنبية في الاسكندرية وكذلك مدينة البندقية التي كانت سفنها ترسل إلى الاسكندرية الأخشاب لاستخدامها في صناعة السفن .

Hyde: Histoire du Commerce du Levant au moyen - âge. t. I. P. 105
(Leipsiz 1923)

(٣) إبراهيم أحمد العدوي : الأساطيل العربية ص ١٣٨ .

تخرج إلى أنطاكية ، مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس وسواحل الشام (١).
 وكان أهل الاسكندرية ، بحكم تطرفها وعزلتها عن البلاد ، يميلون إلى
 المعارضة والاستقلال ، فقد كانت الاسكندرية قبل العصر الطولوني ولاية
 مستقلة ، كما أقام فيها الربضيون جمهورية أندلسية مستقلة دامت ما يقرب
 من عشرة سنوات ، وكانت الاسكندرية كذلك على اتصال بالفاطميين
 أيام الدولة الإخشيدية . فلما جاء الفاطميون حن أهلها إلى الانفصال ، فمها
 قام ناصر الدولة بن حمدان ضد المستنصر ، وأقام الخطبة للخليفة العباسي
 القائم بأمر الله (٢) ، وفيها ثار الأوحده سنة ٤٧٧ هـ على أبيه بدر الجمالي ،
 والتف حوله جماعة من الأعراب ، فسار إليه أبوه وقبض عليه ، وقتل عددا
 كبيرا من أتباعه ، وصادر كثيرا من أموال أهالي الاسكندرية ، وأنفق منها على
 تأسيس جامع العطارين (٣) ، وفيها قامت الحركة النزارية عقب وفاة
 المستنصر بالله (٤٨٧ هـ) ، ومبايعة الوزير الأفضل شاهنشاه للمستعلي بالله
 وإقصائه لابن الأكبر أبي منصور نزار . فقد غضب نزار وسار إلى
 الاسكندرية التي خرج أهلها ووالها ناصر الدولة أفتكين وقتل على طاعة
 الخليفة الجديد ، وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم مع أخيه عبد الله ،
 وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله (٤) . فلما علم الأفضل بذلك خرج

(١) أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دي
 سلان في الجزائر سنة ١٩١١ ص ٨٦ .

(٢) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة
 ١٩٥٧ ص ١٢٨ .

(٣) القريزي : الخطط ج ١ ص ٣٨٢ ، يقول القريزي أن بدر الجمالي نزل
 الاسكندرية (وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحده فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع
 وسبعين وأربعائة إلى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين
 من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه سنة تسع وسبعين وأربعائة) .

(٤) جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ٨٨ - حسن
 ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٢ .

لقتال نزار في الاسكندرية ، ولكنه انهزم وعاد إلى القاهرة ، ثم أعاد الكرة مرة أخرى ، ودخل الاسكندرية بعد حصار دام سبعة شهور ، قذف أسوارها بحجارة الخانيق ، وقضى على الفتنة ، وقتل نزاراً وأفتكين (١) .

كذلك اشتركت المعارضة في الاسكندرية في الصراع الأخير بين الوزراء ، فسار إليها على بن السلار بمجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة بالقوة من يد الوزير ابن مصال في خلافة الظافر بأمر الله ، وتولى ابن السلار الوزارة على الرغم من أنه كان سنياً (٢) .

ومع ذلك فقد شهدت الاسكندرية ازدهاراً كبيراً في الحياة الفنية والعلمية والاقتصادية في العصر الفاطمي ، فعمرت بالمباني الفخمة ، والمصانع الخلية ، وأقيمت فيها المدارس والمساجد والحصون والقصور . ومما يدل على ازدهار هذه المدينة وتألقها في العصر الفاطمي ما ذكره ابن سعيد المغربي في وصف قصر بالاسكندرية لقاضيهما مكي الدولة أبو طالب أحمد بن عبد الحميد ، في عصر الخليفة الأمر بأحكام الله ، فيقول : « وكان بالاسكندرية مكي الدولة أبو طالب أحمد بن عبد الحميد بن أحمد بن الحسن بن حديد (٣) ،

(١) جمال الدين الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافيتها . . . ص ٢٢٠ .

(٢) عبد الهادي شعيرة : الاسكندرية منذ الفتح العربي ص ٩١ .

(٣) ابن حديد هذا لعلة أندلسي من أسرة ابن حديد الطليطلية التي كان أفرادها يقومون بالوزارة أيام ملوك الطوائف في نفس هذا العصر وكان منهم القضاة ، ونعرف أن أحدهم وهو أحمد بن حديد أقام مسجد الباب الردوم بطليطلة سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) أنظر كتابي : المساجد والقصور في الأندلس ص ٥١ ، وكتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٠٧ ، والذخيرة لابن بسام المجلد الأول قسم رابع ص ١١٨ ، ولقد قام القادر بالله يحيى بن ذي النون ملك طليطلة (٤٦٧ هـ - ٤٧٢ هـ) بقتل ابن حديد المذكور . ولعل القاضي الاسكندري مكي الدولة ابن حديد هذا من أعقاب هذا الوزير الشهيد ، نزح إلى الاسكندرية بعد قتل ابن حديد واضطهاد أسرته .

له مروعة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ومدحه ظافر الحداد ، وأمية أبو الصلت وغيرها . وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن (١) كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يرى في نفسه برويته زيادة على أهل التنعم والمباهاة في عصره ، فوشى به البدوية محبوبة الأمر (٢) ، فسألت الأمر في حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد في إحضار الجرن ، فلم يجد بدا من حمله من البستان ، فلما صار إلى الأمر ، أمر بعمله في الهودج فقلق ابن حديد وصارت في قابه حزازة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة ، الخارجة عن الحد في الكثرة ، حتى قالت البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا ، فلما قيل له عنها هذا القول قال : ما لي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها في عز ، غير رد الفسقية التي قلعت من دارى التي بنيتها في أيامهم ، من نعمتهم ترد إلى مكانها ، فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : قد حصلت في حد أن خيرتك البدوية في جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطع حجر ، فقال : أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله تعالى أملاها (٣) . وذكر ابن سعيد أيضا مثلاً آخر يدل على عظم الرخاء في الاسكتندرية في ذلك العصر ، فيروى أن الأمر بأحكام الله قلد سلطان الملوك حيندره أخا الوزير المأمون بن البطائحي ولاية ثغر الإسكتندرية سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) وأضاف له إليها الأعمال البحرية

(١) الجرن فسقية أو نافورة .

(٢) أغرم الأمر بأحكام الله ببدوية أحبها وتزوجها وابتنى لها قصرا في روضة مصر سماه الهودج ، موقعه بجوار البستان المختار . وكان يتردد إليه كثيرا وقتل وهو متردد إليه (أنظر المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب طبعة بحبي الدين عبد الحميد ، الجزء الثالث ص ٥٨ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ٣ ص ٦٠

فلما وصل حيدرة إلى الثغر ، وصف له الطيب دهن الشمع بحضرة القاضي
مكن الدولة بن حديد ، فأحضروه له في حق مختوم ، ففك حيدر عنه
فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت ، كل بيت
عليه قبة ذهب ، مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن ممسك ، وبيت
دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، وأقسم القاضي أن يهبه لحيدرة .
وذكروا أن قيمة هذا المداف بلغت نحو خمسمائة دينار . ويتساءل ابن
سعيد قائلا : ” فانظر رحمك الله تعالى إلى من يكون دهن الشمع عنده
في إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه
فإذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات (١) .
ومن أهم المنشآت التي أقامها الفاطميون في الاسكندرية ما يأتي :

جامع المطارين :

كان يقوم في موضعه مسجد قديم أقيم في فجر الاسلام على أساس
كنيسة القديس أثناسيوس ، وقد أصيب هذا المسجد القديم بأضرار فادحة
في أوائل العصر الفاطمي ، إذ تهدمت بعض جدرانه وتهاوت سقفه ، فلما
قدم أمير الحيوش بدر الجمالي إلى الاسكندرية سنة ٤٧٧ هـ في طلب ابنه
الثائر عليه ، وشاهد هذا المسجد في صورته التي آل إليها ، أمر بتجديده وترميمه ،
وأنفق عليه من أموال ” المصادرات ” أي الأموال التي أغرم بها الثائرين
من أهل الاسكندرية ، سجل ذلك في لوحة تاريخية لم يبق سواها من
المسجد القديم نطالع فيها النص التالي : (بسم الله الرحمن الرحيم (٢)
إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة
ولم ينحس إلا الله ، مما أمر بانشائه السيد الأجل أمير الحيوش ، سيف الإسلام ،

(١) نفس المرجع ص ٦١ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ القاهرة ١٩٤٦ ص ٦٧ .

ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو النجم بدر المستنصرى ، عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا ، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى ، وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة (١) . وعرف هذا الجامع بجامع الحيوشى نسبة إلى أمير الحيوش بدر الجمالى ، وجامع العطارين بسبب وجوده فى سوق العطارين ، ولم يتبق من هذا المسجد القديم أى آثار إذ ، جدد بالبناء سنة ١٩٠١ بأمر عباس حلمى .

مسجد الطرطوشى (٤٥١ - ٥٢٠ هـ)

أقامه الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الأندلسى ، ويعرف بابن أبى رندقة ، أحد كبار أئمة الأندلس (٢) . نزل الاسكندرية واستوطنها وبقي فيها حتى مات فى شعبان سنة ٥٢٠ هـ وقيل فى جمادى الأولى سنة ٥٢٥ هـ ، (٣) . وكان قد تقرب

(١) نفس المرجع ص ٦٧ . هذه اللوحة مثبتة فى قاعدة المئذنة على يسار الداخل من الباب الشمالى الشرقى .

(٢) أنظر ابن بشكوال : كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس المجلد الثانى مدريد ١٨٨٣ ص ٥١٨ يقول ابن بشكوال فى ترجمته « صاحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجاز له ثم رحل إلى الشرق فحج ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبى بكر الشاشى وأبى أحمد الجرجانى وسمع بالبصرة من أبى على التسترى وسكن الشام مدة درس بها وكان إماما عالما عاملا زاهدا ورعا دينا متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا » . . . ويذكر فرنسيسكو بونز بويجس أن خروجه من الأندلس كان فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) (أنظر

Francisco Pons Boigues, Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Géografos arabigo-Espanoles, Madrid 1898, p. 183.

وذكر المقرئ أنه زار قبره بالاسكندرية (نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٠) وقال . فى موضع آخر أنه زار قبره مرارا قبالة الباب الأخضر بالاسكندرية (ص ٢٩٣)

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٢ .

إلى الوزير المأمون بن البطائحي ، فأكرمه المأمون إكراما كثيرا ، فصنف له الطرطوشي كتابه المشهور "سراج الملوك" . وذكر المقرئ أن هذا الفقيه أقام المسجد الموسوم باسمه خارج باب البحر ، في خلافة الأمر بأحكام الله سنة ٥١٠ هـ ، وذلك من مال الديوان السكندري (١) . وقد ضاعت معالم هذا المسجد في الوقت الحاضر ، وإن كان علي باشا مبارك قد أثبت أنه كان متخرجا في أيامه ، وأنه أصلح سنة ١٨٥٣ على يد السيد إبراهيم مورو ، وأن والده الخديوي إسماعيل أتمت تجديده (٢) .

مسجد المؤتمن :

أقام المؤتمن ، سلطان الملوك ، نظام الدين أبو تراب حيدرة أخو الوزير المأمون البطائحي هذا المسجد في المحجة العظمى (الطريقة الممتد بين باب رشيد حتى غرب الاسكندرية) سنة ٥١١ هـ أي في العمام الذي أقيم فيه واليا على الاسكندرية (٣) .

المدارس السنية :

كان أهل الاسكندرية يميلون إلى المذهب السني ، فأقيمت لذلك بالاسكندرية في العصر الفاطمي مدرستان سنيتان ، إحداهما مدرسة الفقيه المحدث أبي طاهر بن عوف (٤) ، أقامها له رضوان بن ولحشى ، وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، سنة

(١) جمال الشيال : الاسكندرية (كتاب الغرفة التجارية) ص ٢١٧ .

(٢) علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٧٠ .

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٨ .

(٤) هو أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف الزهري الاسكندراني تفقه على الامام أبي بكر الطرطوشي وسمع منه ومن أبي عبد الله الرازي وبرع في المذهب وتخرج به الأصحاب ، وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه الموطأ . وتوفي في شعبان سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ٩٦ سنة (أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٢ - حسن عبد الوهاب : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب العدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٣٨٣) .

٥٣٣ هـ (١١٣٧ م) ، والثانية مدرسة الحافظ السلفي ، (١) بناها له العادل بن السلار ، وزير الخليفة الظافر ، سنة ٥٤٤ هـ ، وأقامه على التدريس فيها . وتعتبر هاتان المدرستان أولى المدارس التي أنشئت في مصر الإسلامية (٢) .

* * *

في سنة ٥٦٢ هـ قدمت جيوش أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية ، فلقد تبين لهذا القائد غدر شاور بن مجير السعدي ونكثه لعهد ، وعظم الأمر على شاور فأرسل يستنجد بمري ملك بيت المقدس ، وقدم مري بجيوشه في نفس هذا العام ، فوصل إلى بلبس ، وهناك وافاه شاور وجيشه واشتبكت جيوش شيركوه مع جيوش الصليبيين والمصريين في موقعة البابين في الأشمونين ، وسار شيركوه بعد انتصاره إلى الإسكندرية ، فاستولى عليها ، وأقر بها ابن أخيه صلاح الدين (٣) . وعاد شيركوه إلى الصعيد للاستيلاء عليه ، وانهز شاور والفرنج هذه الفرصة وضربا الحصار على الإسكندرية ، فاحتفى صلاح الدين بأسوارها ، ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر ، صمد فيها للحصار بفضل معونة واليها ، ومساعدة أهل الإسكندرية له ، رغم نفاذ الأقوات والمؤن بسبب الحصار المضروب على المدينة برا وبحرا . فلما علم أسد الدين شيركوه بذلك عاد مسرعا إلى مصر وحاصر القاهرة ، فاضطر شاور إلى رفع الحصار عن الإسكندرية بعد أن صالح شيركوه نظير خنسين ألف دينار يدفعها إلى هذا الأخير .

(١) هو أحمد بن محمد بن سلفة الحافظ الكبير أبو طاهر بن أحمد السلفي الأصبهاني ، استوطن الإسكندرية سنة ٥١١ هـ وعنه أخذ كثير من علماء مصر ، وفي سنة ٥٤٦ هـ أنشأ له ابن السلار مدرسة كان يقوم بالتدريس فيها وتوفي السلفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أنظر السيوطي ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ ، حسن عبد الوهاب : الإسكندرية في العصر الإسلامي ص ٣٨٣ .

(٢) أنظر : السيد عبد العزيز سالم : كتاب مساجد ومعاهد ج ٢ (كتاب الشعب رقم ٧٨) ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٣٨ - السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨ . جمال الشيال : الإسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكي (الغرفة =

وقد ترك هذا الحادث في نفس صلاح الدين أثراً عميقاً لم ينسه ، وحفظ لأهالي الاسكندرية هذا الصنيع ، فزار الاسكندرية سنة ٥٦٦ هـ ولم شعث سورها . ثم شهدت الاسكندرية غزوا قام به الفرنجة بصقلية سنة ٥٦٩ هـ ، وتفصيل ذلك أن جماعة من أنصار الفاطميين تأمروا لإعادة الدولة الفاطمية ، واتفق المتآمرون سنة ٥٦٧ هـ . على استدعاء الصليبيين من صقلية والشام ، وكاتبوا كذلك راشد الدين سنان شيخ الاسماعيلية الحشيشية . غير أن صلاح الدين كشف هذه المؤامرة ، وقبض على المتآمرين وقتلهم . وفي أواخر عام ٥٦٩ هـ وقد فرنج صقلية في أسطول ضخم ، تنفيذاً لاتفاقية المتآمرين ، ولم يكن ملك صقلية وقائد هذه الحملة (وليام الثاني بن وليام الأول بن روجر) قد علم بعد بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين . ويذكر ابن واصل أنه قدم في جيش ضخم عدته ٥٠ ألف مقاتل ، وكان عدد سفنهم ٣٦ طريدة تحمل الخيل و ٢٠٠ شيني ، ٦ سفن تحمل آلات الحرب والحصار ، ٤٠ مركبا حمالة لحمل الأرواد والصناع وأبراج الزحف والدبابات (١) . ونزلت جيوش الفرنجة على الساحل مما يلي البحر والمنارة ، وحملوا على المسلمين حملة قوية أوصلتهم إلى السور ، وأقاموا الحصار على أسوار الاسكندرية ، ولكن حامية الاسكندرية صمدت في بسالة وصبر . وفي اليوم الثالث من الحصار خرج المسلمون فجأة من أبواب الاسكندرية ، وهجموا على أعدائهم فزقوهم كل ممزق ، وأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وقضوا على عدد كبير منهم ، وأحرقوا سفنهم ، واستولوا على آلاتهم وأمتعهم (٢) .

(التجارية) ص ٩٣ ، الاسكندرية طبوغرافية . . ص ٢٢١ - الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٩ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥ ، ١٦ - الشيال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكي ص ٩٤ . ذكر أبوشامة في الروضتين نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام يخبره فيها بوصول الأسطول من صقلية لمهاجمة الاسكندرية ويصفه = (٥)

لذلك كله وجه صلاح الدين إلى الاسكندرية عناية خاصة . فاختصها برعايته ، وزارها سنة ٥٦٦ هـ ، ورمم أسوارها وحصونها (١) ، ثم زارها مرة ثانية في رمضان سنة ٥٧٢ هـ هو وولديه الأفضل والعزیز ، لسماع الحديث من أبي طاهر السلفي ، وتردد على هذا الشيخ في كل جمعة ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت (٢) . واستغل هذه الزيارة في الإشراف على أعمال التحصينات بالاسكندرية ، وتعمير الأسطول وتقويته (٣) ، فأفرد له ديوانا خاصا سماه ديوان الأسطول (٤) .

ثم زار صلاح الدين الاسكندرية مرة ثالثة في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨٢ م) ونخيت عند السواري ، وشاهد الأسوار التي جددتها ، وأمر بالإتمام والاهتمام وقال (نغتم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف) ، فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمه الله عليه — بروايته عن الطرطوشي (٥) في العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع (٦) وفي هذه الزيارة ، أمر صلاح الدين باقامة مدرسة على نظام المدارس السلجوقية ، لم يكن الغرض منها تدريس المذهب السني فحسب ، وإنما كانت تدرس فيها علوم اللغة والدين والطب والفلسفة ، وألحقت بهذه المدرسة مساكن للطلبة ، وحمامات لاستحمامهم ، ومارستانا لعلاجهم . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذه المدرسة عند زيارته للاسكندرية في أواخر عام ٥٧٨ (١١٨٢) فقال : ومن مناقب

= فيها المعركة بين المسلمين والفرنجة (أنظر ملحق رقم ١٤ من مفرج الكروب ص ٤٨٣) .

- (١) المقریزی الخطط ج ١ ص ٣٥٩ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٦ .
- (٣) الشیال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكي ص ٩٤ .
- (٤) أبوشامة : الروضتين في أخبار الدولتين (جزءان) ١٢٨٧ ج ١ ص ٢٦٩ .
- (٥) هو محمد بن عبد الجبار الطرطوشي ، وفد إلى المشرق وذكره العماد في الخريدة وهو غير أبي بكر الطرطوشي الذي ذكرناه آنفا (أنظر نفع الطيب ج ٢ ص ٩٢) .
- (٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٢ .

هذا البلد ومفاخره ، العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس
الموضوعة فيه ، لأهل الطاب والتعب ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد
منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه ، وإجراء يقوم
به في جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئین حتى
أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم
مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت
أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج
وغذاء . . . (١) وكان للعناية الكبيرة التي نخص بها صلاح الدين الاسكندرية
أثر كبير في ازدهار المدينة في العصر الأيوبي ، فكانت وفقاً لما ذكره ابن جبير
حسنة الموقع ، واسعة الأبنية ، فسيحة المسالك ، أبنيتها عالية ، وأسواقها عامرة ،
وكانت تصل المدينة بالنيل ترعة تتفرع قنواتها داخل شوارع المدينة ، وتوزع
إلى الدور والمنازل (٢) .

ازدهرت الاسكندرية في العصر الأيوبي ، ونمت تجارتها ، وأصبحت العاصمة
الفعلية لمصر في هذا العصر . وكانت مصر في عصر صلاح الدين على علاقة
تجارية بالجمهوريات الإيطالية ، فيذكر أبو شامة في الروضتين نص رسالة
أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد سنة ٥٧٨ هـ جاء فيها " فأما
الأعداء المحدثون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام ، والعزائم

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٢ . نلاحظ أن عبارته التالية فيما يختص بالمساجد ،
ومبائنته في حصر عددها إلى ١٢ ألف مسجد ، أمر لا يخص الاسكندرية لحسب ، بل
يقصد به مساجد مصر كلها . فلقد ذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن محمد بن
عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذي قدم إلى الاسكندرية سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م)
وأقام بها أربعين عاما أن بها حدائق وماء رائق ، وأهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة
منها ولا طلب العلم ليلا ولا نهارا ، وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة ، وبها ١٨٠
مدرسة لطلب العلم . (أنظر الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ٣٨٧) .

(٢) ابن جبير ص ٤١ .

الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية . . . ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية . . . ومن هؤلاء الحيوش ، البنادقة والباشنة والخنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون . . (١)“

وجرت العادة في الاسكندرية ألا تبخر أى سفينة من السفن التجارية الايطالية إلا إذا دفعت ما كان مقررا عليها من الرسوم (٢) . كما كان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل بر الاسكندرية من سلع أو مال ، وذلك ليفرضوا عليهم ضريبة جمركية ، وفي سبيل ذلك كانوا يقومون بتفتيش المسافرين . وقد حدث هذا لابن جبیر عند نزوله بالاسكندرية فيقول :

” فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طاع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله . . . فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها “ (٣) وقد انتقد العبدري أيضا ما يفعله رجال الديوان وأمناء السلطان من تعسف وإذلال للمسافرين ، فيقول بعد وصفه الاسكندرية وعجائنها : ” ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ملحق رقم ١٥ ص ٤٩١ .

(٢) الباز العزني : مصر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٣ .

(٣) ابن جبیر : الرحلة ص ٣٩ - ٤٠ .

عن قلة دينهم (يعنى أهل الاسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج ويحرجونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى ، وذلك لما وصل إليها المركب، جاءت شرذمة من الحرس، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعلم منهم لأسد الآفات فريسة ، فلدوا فى الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استحلّفوهم وراء ذلك كله . . . (١) ومن العجب أن هذه القاعدة التى جرى عليها ديوان الثغر، استمرت حتى نهاية عصر المماليك، وكانت الحكومة تفرض على تجار الغرب والمسلمين الرسوم الباهظة ، وقد وصف فريسكو بالدى (فى القرن ١٤ م.) ما لاقاه على أيدي ضباط التفتيش، وقال بين ما قاله ” فاستلمنا بعض الضباط ، وأخذوا فى عدنا كالبهاثم ، ثم أثبتوا العدد فى دفاترهم، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشا دقيقاً، وتركونا فى حراسة قنصل فرنسا، ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان، وأعيدت ، وفحصت فحوصا شديدا “ (٢) ولقد علل الأستاذ فييت تشدد ديوان الاسكندرية فى التفتيش منذ عصر الدولة الأيوبية ، بأن مصر كانت فى حرب مع الصليبيين فى بلاد الشام (٣) .

وكان نتيجة لازدهار التجارة فى الاسكندرية ، باعتبارها مركزا لنقل التجارة بين الشرق والغرب ، أن أقامت الجمهوريات الإيطالية لها فنادق بالإسكندرية، فقد كان للتجار البنادقة فيها فندقان تتولى إدارة الحمارك (الديوان

(١) ابن جبير : الرحلة (مقدمة فى ترجمة المصنف) ص ٢٧ .

(٢) فييت : المواصلات فى مصر، مقال فى كتاب (فى مصر الاسلامية) ص ٤٠ .

(٣) نفس المرجع . يذكر ابن مماتى أن ثغر الاسكندرية المحروسة كان أعظم

ثغور مصر قدرا وأفخمها أمرا وأكثرها ارتفاعا ، وكان الديوان يفرض على تجار

الروم الواردين على الثغر الخمس (أنظر ابن مماتى ص ٣١٥ — ٣٢٦) .

السكندرية (صيانتها والمحافظة عليها ، وكانت الفنادق في العصور الوسطى مستودعات ضخمة للمتاجر والسلع تمهيداً لتوزيعها ، أما الغرف العليا بالفنادق فكانت تستخدم لسكنى النزلاء الأغراب من التجار (١) ، وقد أشار بنيامين التطيلي إلى هذا النوع من المباني فيقول : " وهذا البلد تجارى ، يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية ، فمن بلاد الغرب : البندقية ، ولبارديا ، وتسكانة ، وأبولية ، وأمالى ، وصقلية ، وكالابرية ، ورومانيا ، وكازاريا وباتزيناكيا ، وهنغاريا ، وبلغاريا ، وراكوفيا ، وكرواتيا ، واسكلافونيا ، وروسيا وألمانيا ، وسكسونيا ، ودنمركة ، وكزلانديا ، وايسلندا ، والنرويج ، واسكتلندا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وفلاندرز ، ونورمانديا ، وأنجو ، وبواتو ، وبورجونيا ، وبروفنس ، وجنوة ، وبيزا ، وغسقونيا ، وأرغون ، ونبارة . ومن بلاد الشرق الإسلامى : الأندلس ، والمغرب ، وأفريقية ، وبلاد العرب ، والهند ، والحبشة ، وليبيا ، واليمن ، وبابل ، وسوريا ، واليونان ، وتركيا . وتأتىها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التى يشتريها التجار المسيحيون . وهى مدينة عامرة بالتجارة ولكل بلد فندق " (٢) . ولعل ذلك هو السبب فى تسمية باب سدرة من أبواب الاسكندرية باسم باب البهار ، لأن بهار الهند والشرق الذى يأتى إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، كان يحمل منها ، إما فى سفن تسير فى النيل ، ثم فى خليج الاسكندرية ، حيث تفرغه خارج الاسكندرية عند هذا الباب ، وإما يحمل على ظهور الجمال إلى الاسكندرية ، ويدخل إليها من هذا الباب (٣) . ويذكر ابن ممتى أن المراكب تسير بخليج الاسكندرية وتحمل إليها الشب والغلال ، والكتان ، والبهار ، والسكر ، وغير ذلك من الأصناف ، كما تحمل من الاسكندرية

(١) الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٠٧ (أنظر مقالى عن الفنادق فى دائرة معارف الشعب العدد ٦٤) . يعطينا ابن جبير اسم فندق نزل فيه هو فندق الصفار على مقربة من موضع يسمى الصبانة (ص ٣٩)

(٢) Viajes de Benjamin de Tudela (1160-1173) p. 115

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبي والملوكى ص ٩٦ .

الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب ، وذلك في شهر مسرى ، الموافق لشهر آب ، حيث ترتفع مياه النيل ، ويمتلئ خليج الاسكندرية بمياه النيل (١) .

* * *

وكان منار الاسكندرية يهdy السفن في البحر إلى الميناء وإليه يشير الرحالة ابن جبير بقوله : ” ومن أعظم ما شاهدناه من عجائب المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، أولاه ما اهتموا في البحر إلى بر الإسكندرية (٢) ، يظهر على أزيد من سبعين ميلا . ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا يزاحم الجوسموا وارتفاعا ، يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع (٣) وذكر أيضا كثرة المساكن التي يشتمل عليها في طوابقه المتعددة وأشار إلى مسجد بأعلاه ، موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه . كذلك وصفه بنيامين التطيلي فقال : ” وما يزال المنار يهdy المسافرين في البحر ، إذ أن كل من يأتي إلى الاسكندرية من أى مكان يمكنه أن يراه نهرا على بعد ١٠٠ ميل ، وفي الليل توقد فيه المشاعل حتى يرى رجال البحر لهيها على مسافة بعيدة للغاية فيتجهون إليها “ (٤) .

(١) ابن ممتق : كتاب قوانين الدواوين جمعه وحققه عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٥٧ .

(٢) تتضح أهمية منار الاسكندرية للسفن القادمة إلى الميناء بسبب سهولة أرض المدينة ، وعدم وجود مرتفعات تنبئ عنها ، لذلك يبدو منار الاسكندرية أول شيء للسفن .

(٣) ابن جبير ص ٤١ .

(٤) Viajes de Benjamin de Tudela, p. 114.

الفصل الرابع

الاسكندرية في عصرها الذهبي (عصر المماليك)

الفصل الرابع

الاسكندرية في عصرها الذهبي (عصر المماليك)

شهدت الإسكندرية في عصر المماليك نهضة اقتصادية وعمرانية كبرى لم تشهدها في عصورها السابقة أو اللاحقة ، فقد اهتم سلاطين المماليك البحرية والجراكسة بعنايتهم ، واهتموا بها غاية الاهتمام ، فأمهروها بروائع المنشآت ، الدينية والمدنية والحربية ، وزودوها بالقلاع والتحصينات ، منذ الوقت الذي بدأ فيه الصليبيون في قبرص ورودس (١) يوجهون أنظارهم إليها ، بعد

(١) نجح السلطان الأشرف خليل في طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام بعد أن افتتح عكا آخر معقل لهم في الشام في ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ، ودمر حصونها ومعابدها ، ونقل بوابة كنيسة سان جان بعكا إلى القاهرة ، غنيمة شاهدة له بانتصاره النهائي على الصليبيين ، وقد استخدمت هذه البوابة في تزيين مدخل مدرسة الناصر محمد بن قلاوون وضريحه بالنحاسين (كمال سامح : العمارة الاسلامية في مصر ص ٨٥ - محمود أحمد ، تاريخ العمارة الاسلامية في مصر ومقال في كتاب « في مصر الاسلامية » ص ٧٨) . غير أن سقوط عكا لم يقض تماما على الخطر الصليبي على مصر والشام ، فقد أقام بقايا العناصر الصليبية وعلى الأخص فرسان الاستتارية في جزيرة قبرص منذ عام ١٢٩١ م ، واتخذوها قاعدة لهم لتنفيذ سياستهم العدوانية ضد المماليك في مصر والشام ، كما اتخذوا جزيرة رودس حصنا ومعقلا ويتوالهم فيها سورا ضخما وقلاعا غاية في الوثاقة والاحكام يتحصنون فيها من الغزاة (أنظر على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٤١ ، إبراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٩٥) وظلت قبرص ورودس تناوئان دولة المماليك حتى افتتح برسباي قبرص سنة ١٤٢٦ م . أما رودس فقد فشل الظاهر جقمق في فتحها ثلاث مرات منذ ١٤٤٠ حتى ١٤٤٤ ، وكان فشله أخيرا في فتحها يرجع إلى وصول إمدادات قطالونية وبرجندية إلى الجزيرة (أنظر السخاوي : كتاب التبر السبوك في ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ ص ١٤ ، ٨٨ - ٨٩) وفي الملحق الخامس وصف أحد سفراء غرناطة للموقعة الأخيرة

أن فشلوا في فتح مصر عن طريق دمياط مرتين في عصر الدولة الأيوبية .
وكان يتولى أمر الاسكندرية في عصر المماليك البحرية ولاية من أمراء الطبلخانة ،
فلما كانت سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) حول السلطان الأشرف شعبان ولايتها
إلى نيابة ، باعتبار الاسكندرية أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض
المتوسط ، وأصبح يتولى شؤونها نائب يختار من أمراء المؤمنين ، وكان هذا
النائب يتمتع بادیء ذی بدء بما كان يتمتع به نواب السلطنة المملوكية في
نيابات ، طرابلس ، وصفد ، وحماة ، من نفوذ وسلطان ، وسرعان ما ارتفعت
مكانته وقوى نفوذه ، وأصبحت مرتبته تعادل مرتبة نائب السلطنة بالديار
المصرية (١) . وهناك عامل آخر ساعد على ازدياد أهمية الاسكندرية بحيث
أصبحت أهم ثغور مصر في عصر المماليك ، هو أن المماليك هدموا بعض
أجزاء من دمياط خشية أن يجدد الصليبيون حملاتهم عليها (٢) ، فأنهت
الألوية إلى الإسكندرية . كذلك ردم فم بحر دمياط في عهد السلطان
بيبرس حتى لا تتمكن الأجفان الصليبية من الوصول إليها والاعارة على
مصر (٣) .

= ونلاحظ أنه في سنة ١٤٥٠ قام أهل رودس بالاعارة على ثغر الاسكندرية واستولوا
على أربعة سفن مشحونة بالغلل والبقيق بما قيمته نحو مائة ألف دينار (أنظر
السخاوي ص ٣٢٤) .

(١) على إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٧ . نلاحظ
أن نائب السلطنة في مصر أصبح بمثابة السلطان الثاني ، فقد كان له الحق في إصدار
القرارات ومنح ألقاب الامارة وتوزيع الاقطاعات (القلتشندی : صبح الأعشى
ج ٤ ص ١٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية
ص ١٣٩) .

(٢) جال الشيال : الاسكندرية : مقال في مجلة الجمعية التاريخية ص ٢٢٧ -
سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ - على
إبراهيم حسن : دراسات ص ٤٢ .

وهكذا انفردت الاسكندرية بالمكانة الأولى بين سائر ثغور مصر ،
وذكرها ابن بطوطة فمدحها بقوله : ” هى الثغر المحروس والقطر
المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحسين ،
وماثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة
والإحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ،
الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق الحاسن ، لتوسطها بين المشرق
والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة نالها انتهاؤها ، وقد
وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا “ (١) .

وكان للثروات الضخمة التى تدفقت على الإسكندرية من التجارة
الشرقية والغربية أثر كبير فى ازدهار عمرانها وتقدمه تقدما يشهد به الرحالة
المسلمون والمسيحيون على السواء ، ممن زاروا المدينة فى عصر المماليك ، وليس
أدل على ذلك الازدهار من كثرة المنشآت المعمارية فى هذا العصر ، وهى
منشآت تتفق من جهة مع الانتعاش الاقتصادى الذى أصاب المدينة بسبب
تحول طرق التجارة إليها ، مثل الفنادق والوكالات ودور الصناعة ، وتعكس
من جهة أخرى روح الجهاد التى سادت المدينة فى هذا العصر مثل الحصون
والمساجد والأربطة والخانقاوات ودور الحديث . هذا إلى جانب منشآت
مدنية مثل دار النيابة وخزائن السلاح . ويرجع الفضل فى ازدهار الاسكندرية
وتألقها فى عصر المماليك إلى ستة سلاطين ، ثلاثة منهم فى عصر المماليك البحرية
هم : الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والأشرف شعبان ، وثلاثة فى
عصر المماليك الجراكسة هم : الأشرف برسباى والأشرف قايتباى وقنصوه
الغورى .

(١) ابن بطوطة : تحفة النظائر ١ ص ١٠٩ .

في عهد الظاهر بيبرس : (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)

كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بالاسكندرية من سلاطين المماليك البحرية ، فقد زارها أربع مرات ، وكان يترك فيها من الأثر كل مرة مانوه به المؤرخون وتناولوه بالذكر . وكانت زيارته الأولى الاسكندرية في بداية سلطنته سنة ١٢٦٢ م . وقد روى ابن واصل خبر هذه الزيارة ، ووصفها ، ويعتبر وصفه غاية في الأهمية ، لأنه كان مرافقاً للسلطان ، ويذكر ابن واصل أن أهل الاسكندرية احتفلوا بزيارة السلطان لمدينتهم احتفالاً كبيراً ، وأنهم تلقوا بيبرس عند دخوله من باب رشيد بالسور والفرح والدعاء ، وقضى بيبرس يومه يتفقد مهمات الثغر ، وأمر بكسوة الجامع الغربي ، وعمل قناديله وعمارته من ماله الخاص (١) ، وقام بيبرس بزيارة شيخان من كبار الزهاد والصوفية بالاسكندرية ، الأول الشيخ أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكي الاسكندري المعروف بالقباري ، أحد العباد المشهورين بكثرة الورع والتحرى والانقطاع (توفي في ٦ شعبان سنة ٦٦٢ هـ عن ٧٥ سنة) (٢) ، فلما زاره بيبرس وحادثه ، نصحه الشيخ القباري بضرورة تحصين الثغر وترميم أسواره ، ففعل ما نصحه به ، وأمر بترميم أسوار المدينة . والشيخ الثاني الذي زاره بيبرس هو أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي الزاهد (توفي سنة ٦٧٢ هـ عن بضع وثمانين سنة) (٣) ، ولما زاره بيبرس سأله عن حوائجه فقال

(١) أنظر : جمال الشيال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكي ، غرفة الاسكندرية التجارية ص ٩٧ ، الاسكندرية (مقال في المجلة التاريخية المصرية) أكتوبر ١٩٤٩ ص ٢٣٠ . نقلا عن مخطوطة مفرج الكروب لابن واصل (نسخة باريس) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٢٣ ، المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤١ .

الشيخ : ليست لي حاجة لأن راتب السلطان علينا ، ونحن من نعمته في إنعام تفضل علينا وعنا " (١) .

ثم زار بيرس ثغر الاسكندرية للمرة الثانية عام ٦٦٤ هـ (أوائل عام ١٢٦٥ م) ، وفي هذه الزيارة ، أمر بإزالة الرواسب الرملية التي أوشكت أن تطمر بعض أجزاء من ترعة الاسكندرية ما بين قرية النقيدي (قرب كوم حمادة) وفم الخليج ، وطهر الخليج مما كان يعوقه من رمال ، غير أن عمر طوسون يرى أنه طهر الترعة ما بين النقيدي وشابور ، كما طهر المرحلة ما بين ببيج ودمهور ، ويستدل على ذلك من وجود قرية تسمى الضهرية وتصحيحها الظاهرية نسبة إليه ، بدلا من الاسم القديم منية ببيج ، كذلك يستدل على أن ترعة الضاهر الحالية تحمل اسمه مما يدل على أنه أجرى فيها بعض الأعمال (٢) . وانتهز بيرس فرصة وجوده بالاسكندرية وأخذ يتفقد حصونها .

ثم زارها للمرة الثالثة في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . وبينما كان يستولى على حصون الحشيشية بالشام لاعتراضها سبيل مشروعاته ضد الصليبيين وصلته الأخبار بتأهب الصليبيين بقيادة لويس التاسع لغزو مصر ، فأسرع بالعودة إلى مصر ، وأمر بنصب مائة منجنيق على أسوار الاسكندرية ، لاستقبالهم بمثل ما استقبلهم به في المنصورة ، غير أن الحملة التي كانت موجهة إلى مصر تحولت إلى تونس في عهد المستنصر الحفصي ، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر :

أفر نسيس ، تونس أخت مصر ... فتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطوا شيك منكرو نكير

(١) الشيال : الاسكندرية في العصرين الايوبي والملوكي ص ٩٨ .

(٢) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ١٩٤٢ ص ٢٣ - ٢٤ .

فقضى الله أن يموت في حملته بتونس (١) .

أما زيارته الرابعة والأخيرة فتمت عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، وفيها رمم منار الاسكندرية وأصلحه ، فقد ذكر السيوطي أن وجهها البحرى قداعى ، وكذلك الرصيف الذى بين يديها من جهة البحر وكادا يتهدمان . وذكر الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال أنه أمر بإنشاء مسجد بأعلى المنار مكان قبة كان قد أقامها هناك أحمد بن طولون ثم أسقطها الرياح ، غير أن السيوطي يذكر أن هذا المسجد أقيم مكان القبة في أيام الملك الكامل ، أى في عصر الدولة الأيوبية (٢) .

في عصر الناصر محمد بن قلاوون : (٦٩٣ - ٦٩٤ ، ٦٩٨ - ٧٠٨ ، ٧٠٩ - ٧٤١ هـ) .

تابع السلطان الناصر محمد سياسة الظاهر بيبرس في العناية بثغر الإسكندرية ، فقد حدث في سنة ٧٠٢ هـ ، أى في ولايته الثانية ، زلزال عنيف أصاب عدد كبير من آثار الثغر ، وأهمها منار الاسكندرية وسورها وحصونها ، وقد ذكر المقرئى أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجاً . فكتب السلطان إلى والى الاسكندرية بعمارتها فعمرها . كذلك أمر بترميم ما تهدم من المنار (نحو ٤٠ شرفة) فرمم بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ . ولكن يبدو أن الإصابة كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم ، فسقط جانب منه ، ويدل على ذلك ما ذكره ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م)

(١) المقرئى : نفح الطيب ج ٤ ض ٩٠ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٩ . شاهد ابن جبير هذا الجامع وصلى فيه (أنظر رحلة ابن جبير ص ٤١) . ولما كان ابن جبير قد زار مصر في أيام صلاح الدين فلا بد إذن أن يكون ما ذكره السيوطي نقلاً عن صاحب مناهج الفكر بعيداً عن الحقيقة ، والأرجح أن يكون بيبرس قد أعاد بناء هذا الجامع بأعلى المنار بعد إصلاحه له .

إذ أشار إلى أنه رأى أحد جوانبه مهتما . ولما زاره بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ / ١٣٥٠ م) ، رآه ” قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه (١) ” ويعلل ابن بطوطة سبب ما أصابه من إهمال بأن الملك الناصر ” قد شرع في بناء منار مثله بازائه ، فعافه الموت عن إتمامه “ (٢) وذكر السيوطي عن ابن فضل الله العمري ” أن هذه المنارة خربت وبقيت أثرا بلا عين ، وكان هذا وقع في أيام قلاوون أو ولده “ (٣) . ويعلق الأستاذ الدكتور جمال الشيال على ما ذكره ابن بطوطة بقوله : ” ولهذا الوصف أهميته خاصة ، فهو يشير إلى معلم جديد من معالم المدينة وهو المنار الحديد الذي أنشئ بازاء المنار القديم – أى في نهاية رأس لو كياس أو رأس السلسلة – وأن هذا المنار بدىء في بنائه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وأنه تم في عهود من أتى بعده من السلاطين “ (٤) أما المنار الذي شرع الناصر في تشييده وتم في العصور التالية (في القرن الخامس عشر الميلادي) فهو المسمى بطابية السلسلة الحالية ، وكانت مقامة في نهاية الصخور المتصلة برأس لو كياس (٥) . وأهم ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الإسكندرية حفره لترعة جديدة هي خليج الاسكندرية أو الخليج الناصري سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ، وذلك بعد أن طمرت الترعة القديمة بالرمال ، ونقل مخرجها من الضهرية (الظاهرية) إلى العطف قبالة فوه ، فأصبحت ترعة

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٠ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) السيوطي ج . ص ٣٩ .

(٤) جمال الدين الشيال : الاسكندرية (المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٣٣ .

(٥) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ص ١٤٧ .

(٦)

خليج الإسكندرية بذلك تمتد من العطف إلى كفر الحمايدة ، وهو نفس مجرى ترعة المحمودية ، ويشير المقرئ إلى أعمال الناصر بقوله : ” ثم تعطل جريان الماء فيه بطول السنة ، وصار يحفر سريعا بعد شهرين أو شهرا من دخول الماء إليه ، واحتاج أهل الاسكندرية في طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التي يخزن فيها الماء ، إلى أن كانت سنة ١٨٠ هـ (١٣١٠ م) ، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزنداري المعروف بأمر شكار ، ومتولى الإسكندرية ، إلى قلعة الجبل ، وحسن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حفره ، وذكر له ما في ذلك من المنافع ، أولها حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية ، وفي ذلك توفير للكلف ، وزيادة في مال الديوان ، وثانيها عمارة ما على حافتي الخليج من الأراضي ، بإنشاء الضياع والسواقي ، فينمو الخراج بهذا نموا سريعا ، وثالثها انتفاع الناس به في عمارة بساتينهم وشرب مائه دائما . فأعجب السلطان ذلك ، وندب الأمير بدر الدين محمد بن كند على ابن الوزير مع بكتوت لعمله . “ (١) وتم حفر هذا الخليج بعد أن سخر له نحو ٤٠ ألف رجل ، ثم وصل مجراه بفرع رشيد ، فعظم به النفع ، واستغنى الناس عن استخدام الصهاريج ، وعمرت ضفتاه بالعمائر والمنيات ، فلم يمض وقت طويل حتى ازدادت مساحة الأراضي المزروعة ما يقرب من ١٠٠ ألف فدان ، وعمرت بذلك هذه المنطقة ، وأصبحت تضم ما يزيد على أربعين ضبعة (٢) .

في عهد الأشرف شهاب بن مسن بن محمد بن قلاوون : (٧٦٤ -

٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م)

اتخذ الصليبيون بعد سقوط عكا وسواحل الشام في أيدي المسلمين

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) نفس المرجع .



(شكل ٤) الاسكندرية في عصر دولة المماليك الجراكسة (أوائل القرن ١٧ م)

سنه ١٢٩١، من جزيرة قبرص قاعدة لاعتداءاتهم على سواحل مصر والشام ، وقامت بحكم قبرص أسرة لوزنيان المشهورة . واتفق حكمها لقبرص في العصر الذي توفي فيه محمد بن قلاوون ، وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده الأطفال ، فاستبد بشؤون الدولة جماعة من كبار أمراء المماليك ، وقام النزاع بين هؤلاء من أجل الاستئثار بالسلطة ، وشغلهم هذا الصراع عن العناية بشؤون الدولة . ولما تولى بطرس الأول (١) لوزنيان حكم قبرص (١٣٥٠ م ١٣٦٩) ، عمد الى إستغلال الضعف والانحلال الذي وصلت إليه مصر في ذلك الوقت ، وكان بطرس هذا من أشد ماوك الصليبيين تعصبا وكانت حماسه الصليبية الفائقة مثلاً رائعا للفارس المتدين في أوروبا في العصور الوسطى ، إذ جعل بطرس من نفسه بطلا مدافعا عن المسيحية وفكرة الصليبية (٢) ، وذلك بمحاربة المسامين ، وعلى الأخص المماليك الذين أخرجوا الصليبيين من الشام، وهزموا التتار ، وأصبحت لهم قوة تعمل لها أوروبا حسابا كبيرا ، وقبل أن يقدم على مهاجمة المماليك، طاف بدول أوروبا طالبا معونتها وموازرتها أدبيا وماديا . وفي سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أعد بطرس عدته لغزو الإسكندرية ، التي اختارها بالذات لأهميتها الاقتصادية والجغرافية ، وكان سلطان مصر في ذلك الوقت هو السلطان الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن السلطان حسن (٧٦٤ - ٧٧٨ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) وكان طفلا في الحادية عشرة من عمره ، وكانت السلطة الفعلية في يد الأمير يلبغا الخاصكي ، الذي ارتكب من الفظائع وضروب العسف الاستبداد ما أشاع الفوضى في

(١) يسميه محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندري صاحب كتاب «اللام بالاعلام فيما جرت به الأحكام في الأمور المفضية في واقعة الاسكندرية» سنة ٧٦٧ هـ « باسم » ريربطرس صاحب قبرص « (أنظر مقال مسيو كومب) .

E. Combe: Le texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan, Bulletin of the Faculty of Arts of Alex. vol. I, 1946, p. 99

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٢ .

البلاد وأصبحت القاهرة مسرحاً للمعارك ومرتعاً للفساد (١) . ولم تكن الاسكندرية أحسن حالا من القاهرة ، إذ كان حاكمها الأمير صلاح الدين خليل بن عرام متغيباً عن المدينة ، يؤدى فريضة الحج ، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر ، أقل دراية منه فى الإدارة ، سىء التدبير عديم المعرفة “ .

وقد تمت حملة بطرس دى لوزنيان إلى مياه الاسكندرية فى ٢١ محرم سنة ٧٦٧ هـ (٨ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م) ، وظن أهل الاسكندرية فى أول الأمر أن السفن الصليبية هى سفن البنادقة الآتية للتجارة على عادتها كل سنة (٢) . فلم يدركوا إلا بعد فوات الأوان أنها حملة صليبية ، فحاولوا إغلاق أبواب المدينة ، وحشد أبراج الأسوار بالمقاتلة ، ولكن القبارصة اقتحموا الأبواب ، وتدفعوا على المدينة ، فاستولوا عليها ، وفر جنودها ومن معه من الجند إلى دمنهور ، وأطلق القبارصة فى المدينة يد السلب والنهب ، وانتهكوا الحرمات ، وقتلوا الناس وأحرقوا الدور والقصور والفنادق ، واعتدوا على النساء اعتداءات فاضحة ، وسلبوا المدينة وجردوها من روائعها ، ونقلوا كل ذلك إلى سفنهم ، وأسروا عدداً كبيراً من السكان (٥ آلاف أسير) ، وأبحروا بعد أربعة أيام من نزولهم بالاسكندرية ، إذ وصلتهم الأنباء بقدم جيش المماليك بقيادة يلبغا الخاصكى (٣) .

(١) وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، ١٩٢٤ ص ١٠٦ — سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٢ — جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبي والمملوكى ص ١٠٠ ، الاسكندرية (المجلة التاريخية) ص ٢٣٥ .
(٢) سعيد عاشور ص ٧٣ .

(٣) مر مؤرخو مصر فى عصر المماليك على هذه الحادثة مرا سريعاً فلم يذكروا تفصيلاتها . ويرجع الفضل الأول فى وصف واقعة الاسكندرية إلى محمد بن قاسم بن محمد النويرى الذى شرع فى تصنيف كتابه (اللامبالأعلام فيما جرت به الأحكام...) فى جادى الآخر سنة ٧٦٧ وائمة فى ذى الحجة سنة ٧٧٥ هـ . وقد نشر الأستاذ كوسب بعض منتخبات من هذا الكتاب (فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثالث سنة ١٩٤٦) كما بحث هذا الموضوع فى مقال عنوانه :

Les Sultans Mamloûks Ashraf Shabân (764-778) e Ghauri (1906-922)
à Alexandrie, Bulletin de la Société et Royale d'Archeologie d'Alex., fasc.
30-31, 1936-1937.

أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين المدينة ، والعناية بها وبشؤونها ، بعد أن أصبحت مطمع الصليبيين ، وكانت غزوة القبارصة تجربة قاسية مريرة لم ينسها المماليك ، وازدادت أهمية الاسكندرية في أنظارهم . وأول ما عمله الأشرف شعبان في هذا السبيل ، أن حول ولايتها إلى نيابة أى أن يقوم بشؤونها نائب عنه ينفرد بحكمها ، ويكرس جهوده لتحسينها ، والإشراف على دفاعها ، وأصبح هذا النائب يختار من بين الأمراء المقدمين .

وهكذا أصبحت الاسكندرية وما يليها إقليماً مستقلاً - كنه نائب ، له من من السلطات ما يماثل سلطات نواب سورية ودمشق وحلب ، ويعتبر في نفس الوقت صورة مصغرة من السلطان إذ كان يرأس باسمه الحفلات الرسمية التي تتسم بكل مظاهر الترف التي تفرضها القواعد الرسمية . وكان النائب حين يخرج من المدينة من باب البحر في موكب رسمي يشبه السلطان حين يخرج من القلعة ، وكان يصحبه عند خروجه مماليكه وأجناد الحلقة والأمراء والشبابة السلطانية بين يديه ، وكان موكبه يبدأ من دار النيابة (القصر) ويخرج من باب البحر ، ويسير خارج المدينة قدر ساعة ، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة .^٢ وإذا كان في هذا الموكب سباط وضع الكرسي في صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نمجاة (خنجر مقوس يشبه السيف) سلطانية ، ومد السباط تحته ، وأكل مماليك

= هذا والكتاب ما يزال مخطوطاً حتى يومنا هذا . ويذكر الدكتور جمال الشيال أن له أربعة نسخ مخطوطة إحداها في مكتبة برلين تحت رقم ٩٨١٥ ونسخة ثانية تتضمن الجزء الثاني محفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ والجزء الأول تحت رقم ٤١٩٣ وسبعة ثالثة تشتمل على الجزء الأول في خزانة بانكي فور بالهند تحت رقم ٢٣٣٥ ، والرابعة في المتحف البريطاني بعنوان « مرآة العجائب في وقاية الاسكندرية » تحت رقم ٦٠٦ . (أنظر جمال الشيال : الاسكندرية المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٠٨ .

النائب وأجناد المثين، وجلس النائب بجنبه من الإيوان، والشباك مطل على مينا البلد، ويجلس القاضي المالكي عن يمينه، والقاضي الحنفى عن يساره، والناظر تحته، والموقع (١) بين يديه، ورؤس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص (٢) فيقروها الموقع على النائب فيفصلها، بحضرة القاضي، ثم ينصرف الموكب " (٣). وهكذا اكتسبت الاسكندرية أهمية فوق أهميتها، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر. واهتم نائها باصلاح ما تخرب من منشآتها بسبب غزوة القبارصة، فرمم الأسوار، وأعاد تنظيم المدينة مدنيا وحربيا، وقوى حامية المدينة، وزاد في عددها وزودها، بأحدث معدات الدفاع كالمدافع (٤).

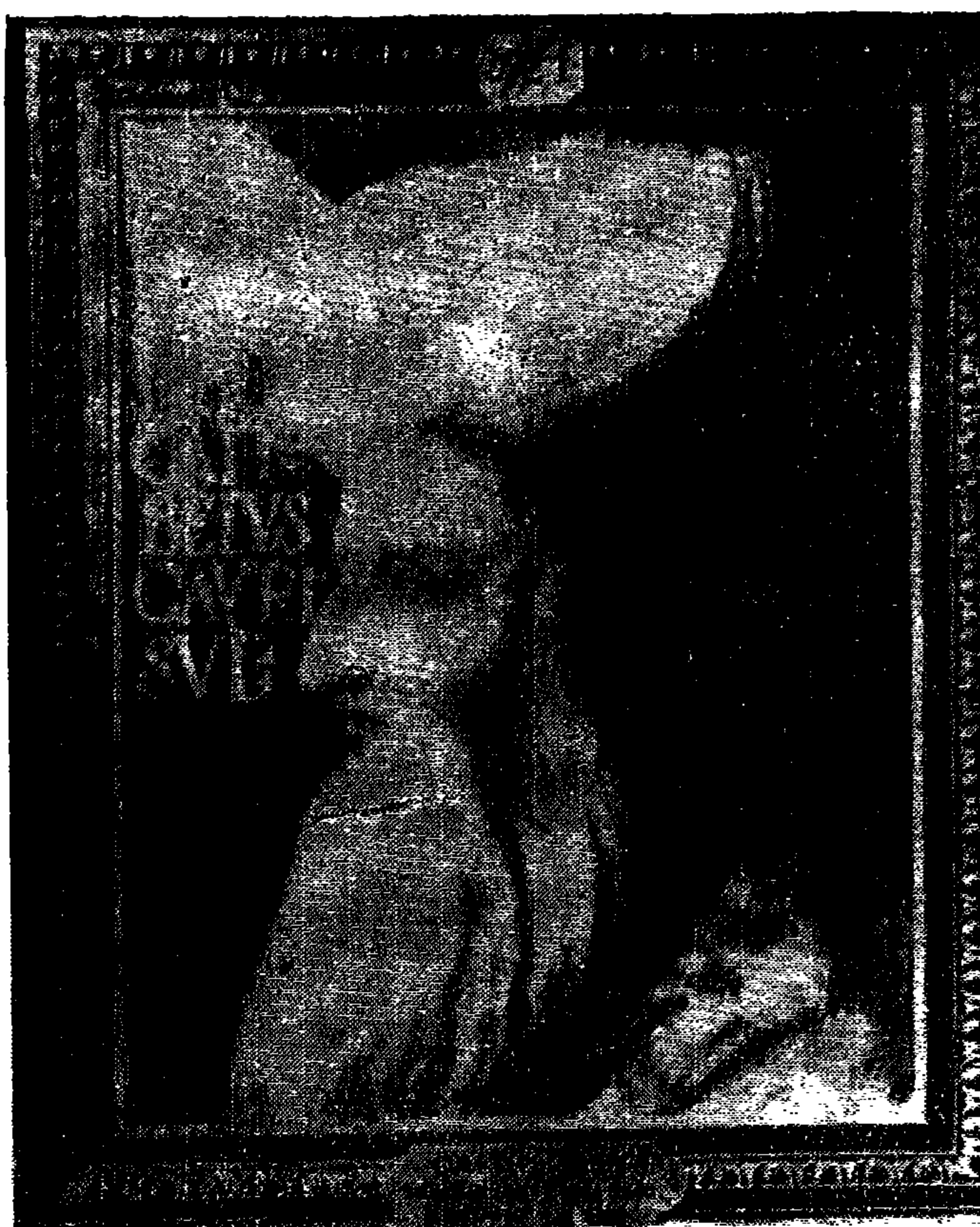
وبالغ السلطان الأشرف شعبان في عنايته بالاسكندرية، فرأى أن يزورها بعد أن قارب سن البلوغ. ففي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨/١٣٦٩ م) زار السلطان الاسكندرية وتفقد حصيناتها وأسوارها وخندقها. ولقد احتفظ لنا النويرى بوصف رائع لهذه الزيارة وهو وصف تفصيلي يتضمن بيانات قيمة عن طبوغرافية المدينة وأهم منشآتها في ذلك الوقت، فيذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد، وسار في المحجة العظمى مارا بأحياء المدينة إلى باب البحر المقابل للميناء الشرقية، وفي طريقه داخل المدينة، مر بمسجد أبي الأشهب وعطف عطفته، فمر على دار ابن الجباب، ومنها إلى جفار القصارين، إلى

(١) هو كاتب السر. وكان يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بأرائه ومشورته، وسمى كذلك لأنه كان يكتم سر السلطان، وكان يلقب أيضا بلقب صاحب ديوان الانشاء أو ناظر الانشاء الشريف. وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية، أما الناظر فالمقصود به المشرف على أموال الديوان، وكان يطلق عليه اسم ناظر خاص وكان يساعده « مستوفى الخاص ».

(٢) الشكايات.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤، ٦٣.

(٤) جمال الدين الشيال: الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكي ص ١٠١.



(شکل ۵) السلطان قایتبای

الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذى يلي البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث ، فشاهد البحر المالح والمينة بها مراكب الفرنج ، ثم سار إلى دار العدل ، ودار الطراز (١) . ولا شك أن هذه المعلومات التى أمدنا بها النويرى عن تاريخ الاسكندرية وتخطيطها ذات قيمة كبيرة ، وسنعالج موضوع تخطيطها فى عصر المماليك فى بداية الفصل التالى .

فى عصر الأشرف برسباى : (٨٢٥ - ١٤٢/٢٨٤١ - ١٤٣٨ م)

نالت الاسكندرية نصيبا وافرا من عناية سلاطين المماليك الجراكسة ، وأولهم الناصر فرج بن برقوق الذى زارها فى ١٨ شوال سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) ، فأوكب بها موكبا حافلا ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وذكروا أنه لما شق من مدينة الاسكندرية وقف له بعض التجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض ، فلما اطلع على تلك الشكاية أمر بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثه ، واقتصر فى الرسوم على العشر (٢) . غير أن هذه السياسة لم يقدر لها أن تستمر فى أيام برسباى ، فقد فرض رسوما إضافية بجانب العشر ، واحتكر تجارة التوابل .

ويقترن اسم الأشرف برسباى باسم خليج الاسكندرية الجديد ، فقد ظل الخليج الناصرى يقوم بوظيفته حتى عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ثم انقطع الماء منه ، وصار لا يدخل إليه إلا فى أيام الفيضان فقط ، ثم يجف عند انخفاض مياه النيل ، ولذلك تحولت كثير من البساتين التى كانت تحيط بالاسكندرية إلى أراض قفراء ، كما خربت كثير من القرى التى كانت تحف بصفى الخليج . فلما كانت أيام الأشرف برسباى ، انتدب لحفره الأمير جرباش

(١) النويرى : اللام بالاعلام بما جرت به الأحكام ج ٢ ، والمرجع السابق .

(٢) ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ ، ج ٤ ص ٤٢٦ - جمال الشيال : الاسكندرية

فى العصرين الأيوبي والملوكى ص ١٠٤ .

الكريمى المعروف بعاشق ، فتوجه إليه فى حشد من العمال بلغ عددهم نحو ٨٧٥ رجلا ، فشرع فى حفره فى ١١ جمادى الأولى سنة ٨٢٦ هـ (٢٢ إبريل سنة ١٤٢٣ م) ، واستمر العمل فيه زهاء تسعين يوما ، وتم حفره فى ١١ شعبان سنة ٨٢٦ (١) هـ (٢٠ يولية سنة ١٤٢٣ م) وسميت التربة الجديدة باسم الاشرفية تيمنا باسم هذا السلطان (٢) .

فى عصر الأشرف قايتباى : (٧٨٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م)

كان عهد الأشرف قايتباى من أحسن عهود مصر وأكثرها ازدهارا فى عصر المماليك . وحظيت الاسكندرية بعناية هذا السلطان واهتمامه ، فلقد زارها سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م) واحتفلت المدينة باستقباله احتفالا رائعا وصفه المؤرخ ابن إياس . وقد ذكرنا نص هذا الاحتفال فى الملحق الذى ذيلنا به الكتاب . وفى هذه الزيارة أمر قايتباى ببناء برج فى الموضع الذى كان يقوم عليه منار الاسكندرية . وشرع فى بناء هذا البرج على أساس المنار القديم ، فى نفس هذا العام ، وتم بناؤه بعد سنتين ، وعندئذ قدم قايتباى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمشاهدته بعد بنائه سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) . وكان هذا البرج يتضمن مسجدا جامعاً وطاحونا وفرنا وحواصل شحنها بالسلاح ، ومكاحل معمرة بالمدافع (٣) . .

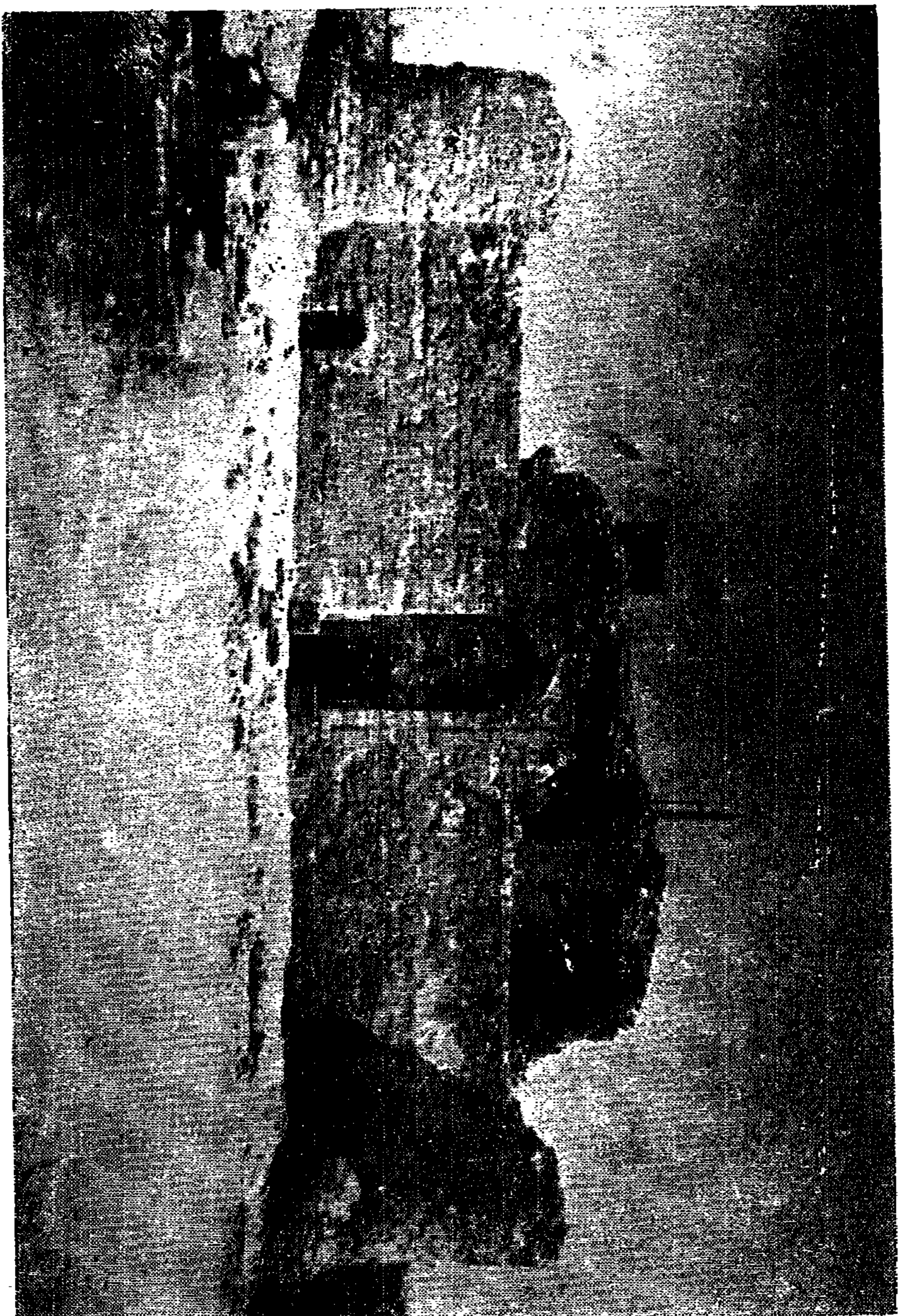
ويرجع سبب اهتمام الأشرف قايتباى بتحصين الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر (٤) إلى اضطراب العلاقات بين مصر وبين الدولة العثمانية ،

(١) القرينى : الخطط ج ١ ص ٢٧٨ .

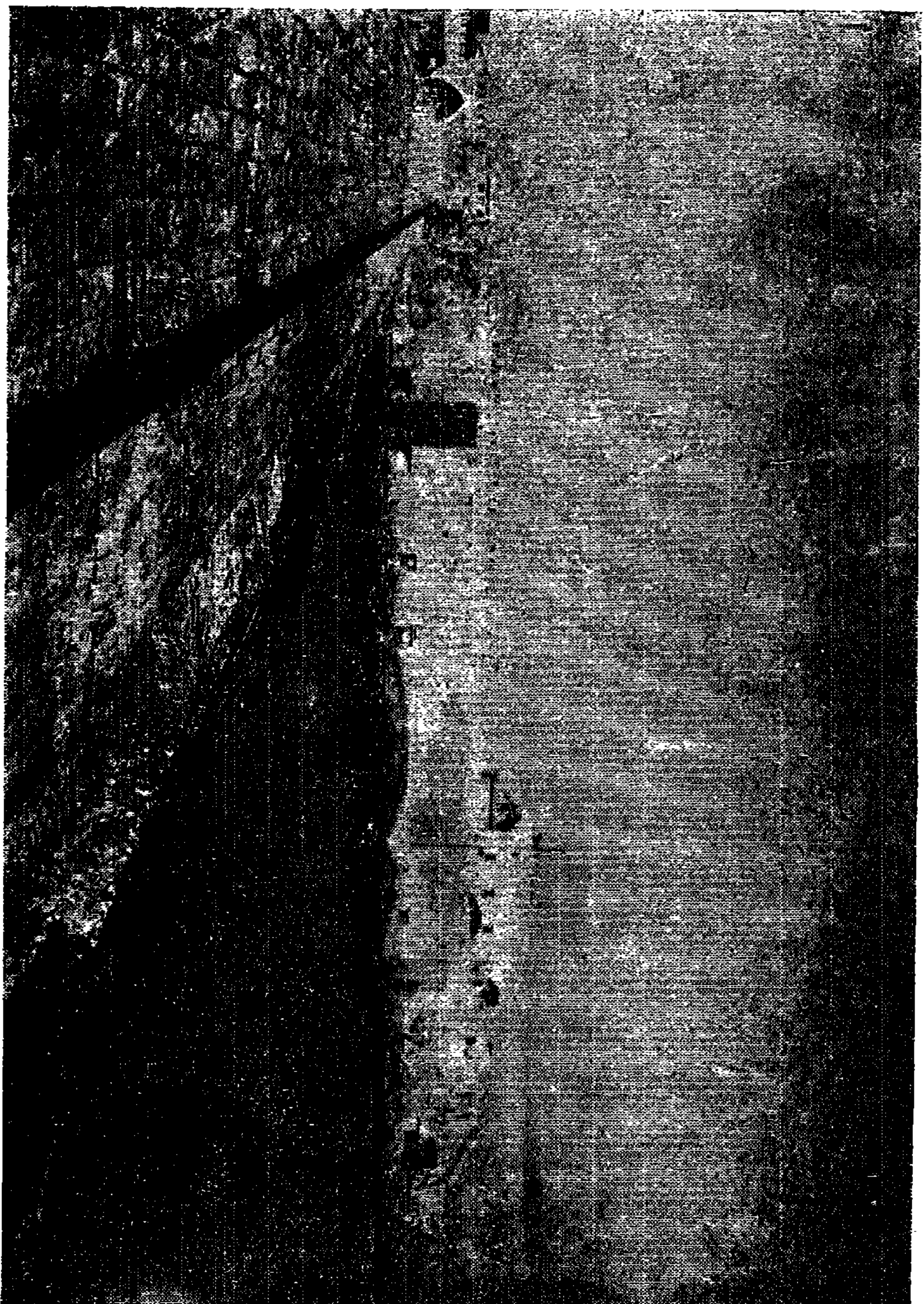
(٢) عمر طوسون : خليج الاسكندرية ص ٢٩ .

(٣) ابن إياس ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٣ ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٤) لم تكن الاسكندرية وحدها هى البلد الذى زوده قايتباى بتحصيناته ، فقد ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور أنه أقام برجا آخر فى رشيد ، تم بناؤه فى نفس العام الذى بنى فيه برج قايتباى بالاسكندرية (ابن إياس ج ٣ ص ١٥١ ، ١٥٢) =



(شکل ۶) قلعه قاپتای قبل الترمیم



(شکل ب) منظر جانبی لقمه قایم‌بای

التي ظهرت قوتها في ذلك الوقت ، خاصة بعد أن فتح محمد الثاني القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في عهد السلطان إينال ، وأصبحت الدولة العثمانية على هذا النحو منافسا خطيرا لدولة المماليك . وكانت علاقات المودة المتبادلة بين قايتباي ومحمد الثاني قناعا زائفا يخفي وراءه حقيقة هذه العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل منهما بالآخرى (١) . وكان قايتباي يدرك تماما ما يحول بخاطر خصومه الأتراك وكان واثقا من تربصهم بدولته وانتظارهم لفرصة مواتية يشنون فيها على بلاده ، عاجلا كان ذلك أو آجلا ، فعمد بادية ذى بدء إلى تحصين ثغوره المعرضة للغزو العثماني من جهة البحر مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط ، ثم أخذ يترقب الأحداث . فلما تولى بايزيد الثاني العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ - ١٥١٢ م) ، ظهر العداء سافرا بين الدولتين ، خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم إلى قايتباي الذي احتفل به في شعبان سنة ٨٨٦ هـ احتفالا عظيما ، وزوده بالمال اللازم والجند ليحصل على حقه في العرش بحد السيف . وغادر جم القاهرة في عام ١٤٨٢ في طريقه لغزو آسيا الصغرى ولكنه هزم واضطر إلى الالتجاء إلى فرسان الاسبتارية برودس في ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢ (٢) ، وبدأ النزاع بين الدولة العثمانية ودولة المماليك يأخذ صورة مصادمات مسلحة .

== وما زالت بقايا قلعة رشيد قائمة حتى وقتنا هذا . ونلاحظ أن ثغر رشيد ظهرت أهميته منذ عهد قايتباي وازدادت هذه الأهمية في أيام قانصوه الغورى . ويذكر ابن إياس أيضا أن السلطان الغورى لما خشى غزوة العثمانيين ذهب بنفسه للتفتيش على حصون الاسكندرية ورشيد وكان ذلك في يوم الأربعاء الموافق ٢ رمضان عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) « وأشيع أنه شرع في بناء سور برشيد على شاطئ البحر الملح فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك » ح ٤ ص ٤٧٤ ، ٨٧٦ .

(١) أحمد السيد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال في المجلة التاريخية المصرية ١٩٥٩ ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٥ ، إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٦٨ .

في عصر السلطان قانصوه الغورى : (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م) .

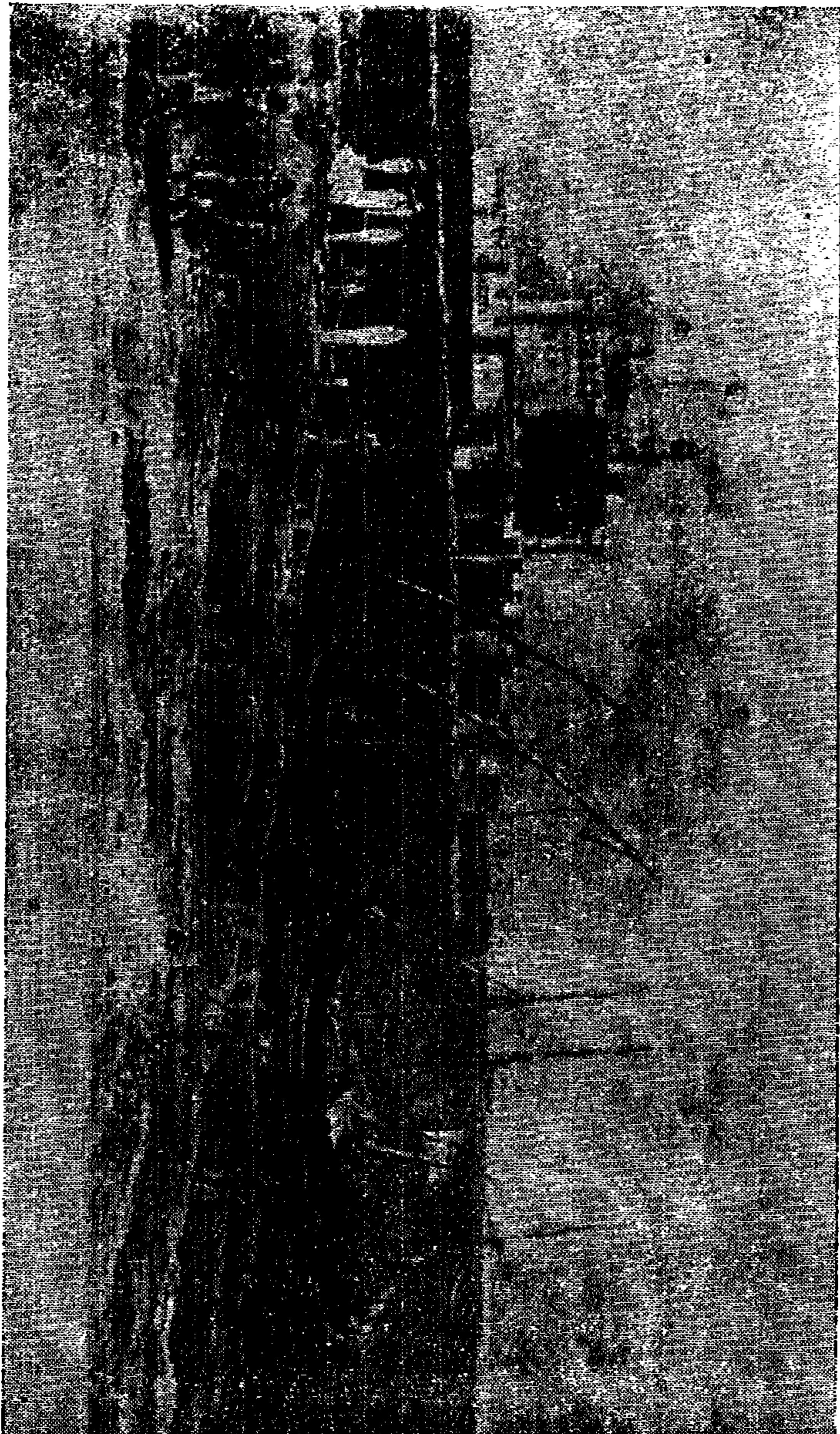
ظلت الإسكندرية مدينة مزدهرة في أيام سلاطين المماليك الجراكسة لأنها كانت تسيطر على الطريق التجارى بين الشرق والغرب حتى نجح البرتغاليون في كشف طريق رأس الرجاء الصالح ورابطت سفنهم بقيادة فاسكو دى جاما عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن المصرية من العبور إلى الهند ، وكان هذا الاكتشاف ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى ، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم البرتغال فى الطريق التجارى القديم الذى يربط مصر بالهند (١) .

ولا شك أن الإسكندرية عانت من جراء ذلك وفقدت نصارتها القديمة ، وتحولت بساكنيها الخضراء إلى أراض قفراء ، ويصفها بدرو مارتير ، سفير الملكين الكاثوليكين إلى السلطان قانصوه الغورى سنة ١٥٠١ م بقوله : " يا للأسف ! ! إن المدينة التى تألفت فى أيام البطالة وكانت فى أحد الأيام أجمل وأعظم وأكثر البلاد عمراناً ، هذه المدينة تخربت ، وعليها ذرفت الدموع ، فقد أصبحت فى أكثرها صحراء . فياله من منظر يثير الحزن ، وأسفاه عليك يا اسكندرية ! ما أعظم أسوارها ! وما أفسح طرقاتها ! وما أشدها كآبة . وما أروع بيوتها التى ترتفع إلى السماء ! ! وما أضخم عقود أبوابها ! وعند مرورنا بداخل الدور وجدناها تحولت إلى أتربة وأنقاض ، وفسروا لنا سبب هذا الخراب الزائد ، فنسبه بعضهم إلى انتشار الأوبئة (٢) وعلاه

(١) فييت : المواصلات فى مصر ص ٤١ ، إبراهيم طرخان ص ٢٩١ - ٢٩٥ .

(٢) انتشرت الطواعين والأوبئة فى عهد الأشرف برسباى سنة ٨٣٣ هـ

(١٤٢٩ م) وفى عهد السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وفى عهد الأشرف قايتباى سنة ٨٨٣ ، ٨٨١ ، ٨٩٧ هـ . (أنظر إبراهيم طرخان : =



(شكل ٨) قلعة قايتباي أيام الحملة الفرنسية وترى الجبانة القديمة الواقعة بين البنايين القديم والجديد



(شكل ٩) السلطان قانصوه الغورى

بعضهم بكثرة الحروب وثورات الأهالي (١) ، بينما أرجع آخرون السبب الأساسي في هذا الخراب إلى تعسف السلاطين واستبداد نوابهم في المدينة . . . فان جميع السلاطين الذين يتولون السلطة كانوا ينهبون أهالي الاسكندرية ، فانها كانت - باستثناء دمشق - المركز التجاري لجميع بلاد السلطان ، ومستودع البضائع والسلع ، لذلك كانوا يسلبونهم كما لو كانوا غنما ، فاذا ما بلغ الوشاة والمخبرين خبرا عن تاجر مثر أخرجوا منه المال بقوة التعذيب ، بدون أدنى عذر سوى رغبتهم في مصادرة ماله ، ولذلك كله كم كان يرتجف التجار وبعض الأهالي المياسير ليلا ونهارا خوفا على حياتهم بسبب ثرواتهم التي يمتلكونها . . . ” (٢) .

ولم يكن هذا السفير وحده الذي شهد بما وصلت إليه الاسكندرية من واضمحلال ، فهذا ابن إياس المؤرخ المصري يصف لنا ما أصاب الاسكندرية من خراب عندما زارها السلطان الغوري في ذي الحجة سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) فيقول : ” . . . فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ في غاية التزحل والخراب . . . ولم يكن بشجر الإسكندرية

= مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥) ويعلل القريري هذه الأويثة بقلّة مياه النيل وارتفاع الأسعار (إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤١) .

(١) يذكر ابن بطوطة أن أهالي الاسكندرية ثاروا على واليها أيام الناصر محمد لأنه كان يتحيز للروم ضد المسلمين فحاصروا قصره ، فبعث الناصر لنجدته أميرا يعرف بالحبالى ثم أتبعه بالأمير طوغان فدخل الاسكندرية « وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكوبك وسواهم وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد ، ثم أن الأميرين قتلوا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا . . . » (ص ١٥) . ويذكر لين بول أن الصيادين الاسكندريين قاموا بثورة كبرى ضد نائب الاسكندرية أيام المؤيد شيخ (١٤١٢ - ١٤٢١ م) أنظر Lane-Poole ص ٣٢٧

Pedro Martir: Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, (٢)
traduccion de L. Garcia, valladolid, 1947, pp. 78-80.

يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض فانهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : وطلب الحبز بها فلم يوجد ، ولا الأكل . ووجد بها بعض دكاكين مفتحة ، والبقية خراب لم تفتح “ (١) .

وبالرغم من هذا التدهور الاقتصادي الذي أصاب الاسكندرية في هذا العصر ، بحيث أنها أوشكت على الاحتضار ، فقد أزمع السلطان قانصوه الغوري على زيارتها في جمادى الآخرة سنة ٩١٦ هـ (سبتمبر ١٥١٠ م) ، ليتفقد أبراجها ، ويصلح تحصيناتها ، خوفا من طروق الافرنج لثغر الاسكندرية ، غير أن الأتابكي قرقاش أثناءه عن الرحيل بحجة صعوبة السفر برا بسبب امتلاء الطرقات بالوحل الناشئ من مياه النيل . فعزل السلطان عن ذلك ، وسافر قرقاش بالنيابة عنه إلى الثغر ، في صحبته الأمير علان الدوادار (٢) ثم رحل السلطان الغوري لزيارة الاسكندرية في ذى القعدة سنة ٩٢٠ هـ ، وعاد في ٢٨ من نفس الشهر (٣) ، بعد أن أقام فيها يومين اثنين (٤) .

وكانت العلاقات قد ساءت إلى درجة كبيرة بين دولة المماليك وبين الدولة العثمانية ، خاصة بعد أن تحالف السلطان الغوري مع الشاه الصفوى ، وآوى الأمير قاسم العثماني ، أحد أبناء الأمير أحمد الذي قتله سليم ، واتخذ منه الغوري أداة للتهديد (٥) . ويذكر ابن إياس أنه لما رجع جانم الخاصكي إلى

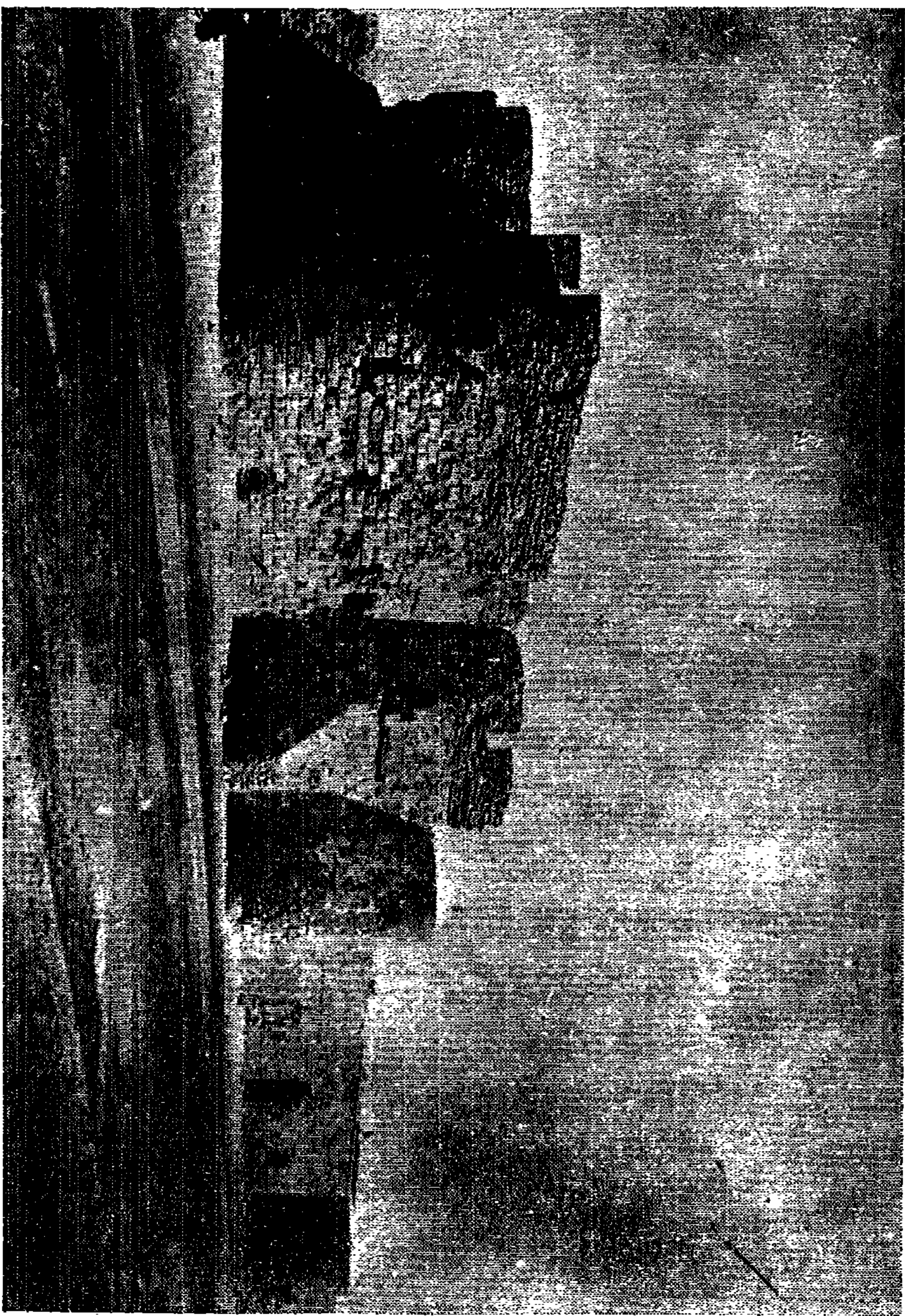
(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٢٤ .

(٢) ابن إياس ج ٤ ص ١٩٣ .

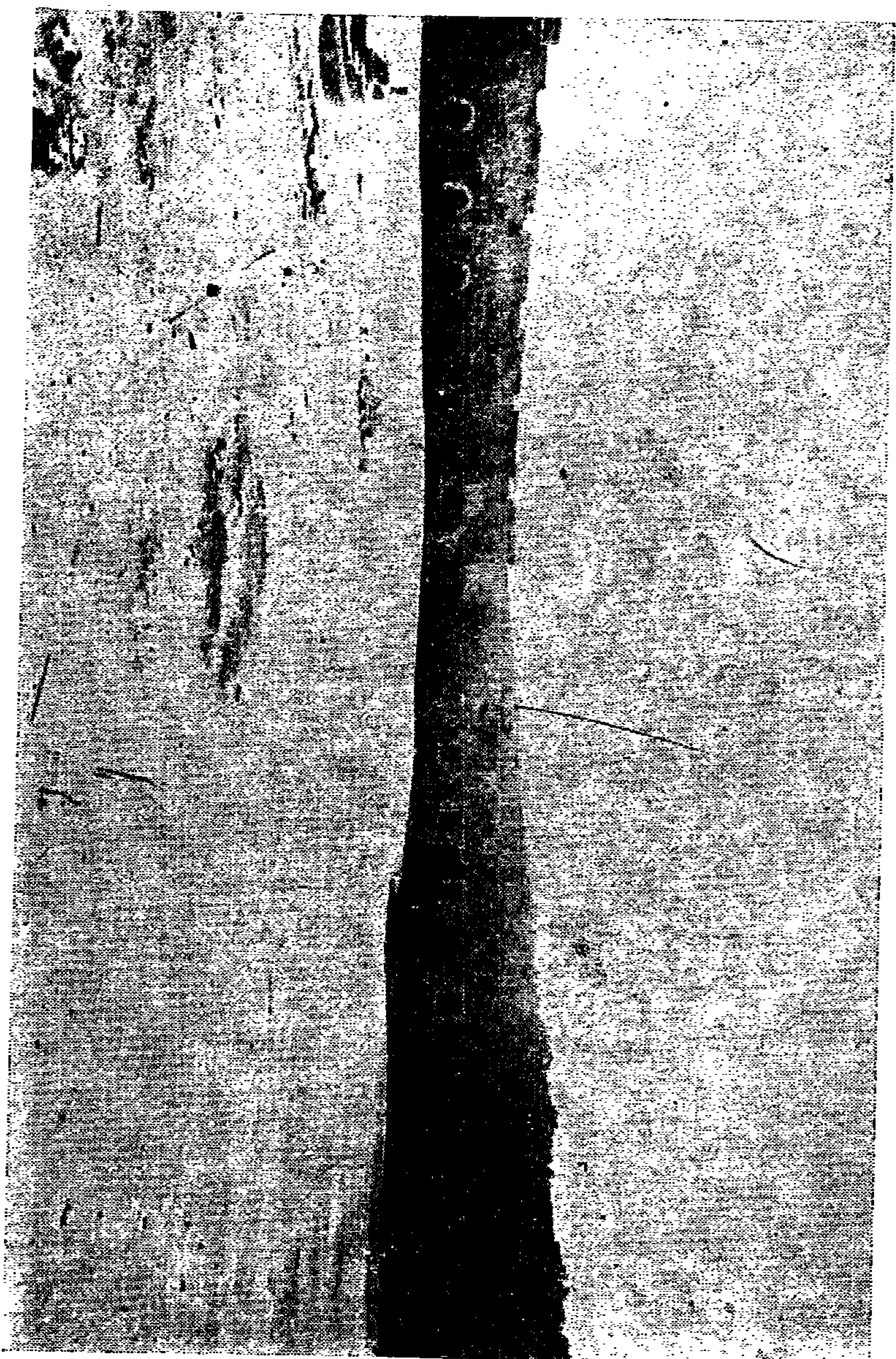
(٣) ابن إياس ج ٤ ص ٤١٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٢٥ .

(٥) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٧٥ .



(شکل ۱۰) منظر جانبی لقدمه قایمبای



(شکل ۱۱) قلمه قایمبای من الداخل

مصر بعد أن أسره الأتراك ، وأوشكوا على قتله ، أخبر الغورى " عن ابن
عثمان أمور شنيعة قالها فى حق السلطان ، وعسكر مصر ، وأنه جهز عدة
مراكب كثيرة نحو أربعائة مركب فى البحر ، تبحىء إلى ثغر الاسكندرية
ودمياط ، وفرق من عسكره تبحىء من على البلاد الحلبية " (١). عندئذ قوى
عزم السلطان الغرى على السفر إلى ثغرى الاسكندرية ورشيد ، ليتفقد
أحوال الابراج والتحصينات بهما ، فسافر فى ٢ رمضان سنة ٩٢١ هـ
(١٥١٥ م) للمرة الثانية ، وهناك أنعم السلطان على خايريبيك العلى
"الشهير بالمعمار متقدمة ألف وجعله متحدثا فى باشية برج الأشرف قايتباى" (٢)
وعاد السلطان إلى القاهرة فى ١٥ رمضان من هذه السنة .

(١) ابن إياس ج ٤ ص ٤٧١ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٧٦ .

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية في العصر الاسلامى

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية في العصر الاسلامى

أولا - التخطيط والعمران :

المدن الاسلامية نوعان : نوع أسسه المسلمون إما تمكينا للمصالح الاقتصادية ، وإما رغبة في تدعيم النظام الدفاعى ، أو لجعلها قواعد إسلامية ومراكز لإشعاع الحضارة الاسلامية ، أو لتكون أرباضا يستريح فيها الملوك والسلاطين ويلهون ، بعيدا عن أنظار الرعية . والنوع الثانى يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح الاسلامى ، التى استقر فيها الفاتحون العرب ، واتخذوها حواضر لهم لماضيها المجيد ، وعمرانها المتطور ، أو لاقتصادها الناهض ، ثم تحولت هذه المراكز العمرانية بمرور الزمن إلى مدن إسلامية ، بعد أن اصطبغت بالصبغة الاسلامية (١). وتعتبر مدينة الاسكندرية من هذا النوع الأخير .

ولقد رأينا من العرض التاريخى السابق كيف عدل المسلمون عن اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر الاسلامية ، رغم الأثائد التى يمكن أن تغنيهم عن بناء منازل أخرى ، وكيف تعرضت الاسكندرية للغزو البيزنطى سنة ٢٥ هـ ولما يمض على فتحها ثلاثة سنوات ، وكيف نجح عمرو فى طردهم من المدينة ، واضطر أخيرا إلى أن يقوم بهدم الأجزاء الجنوبية والغربية من

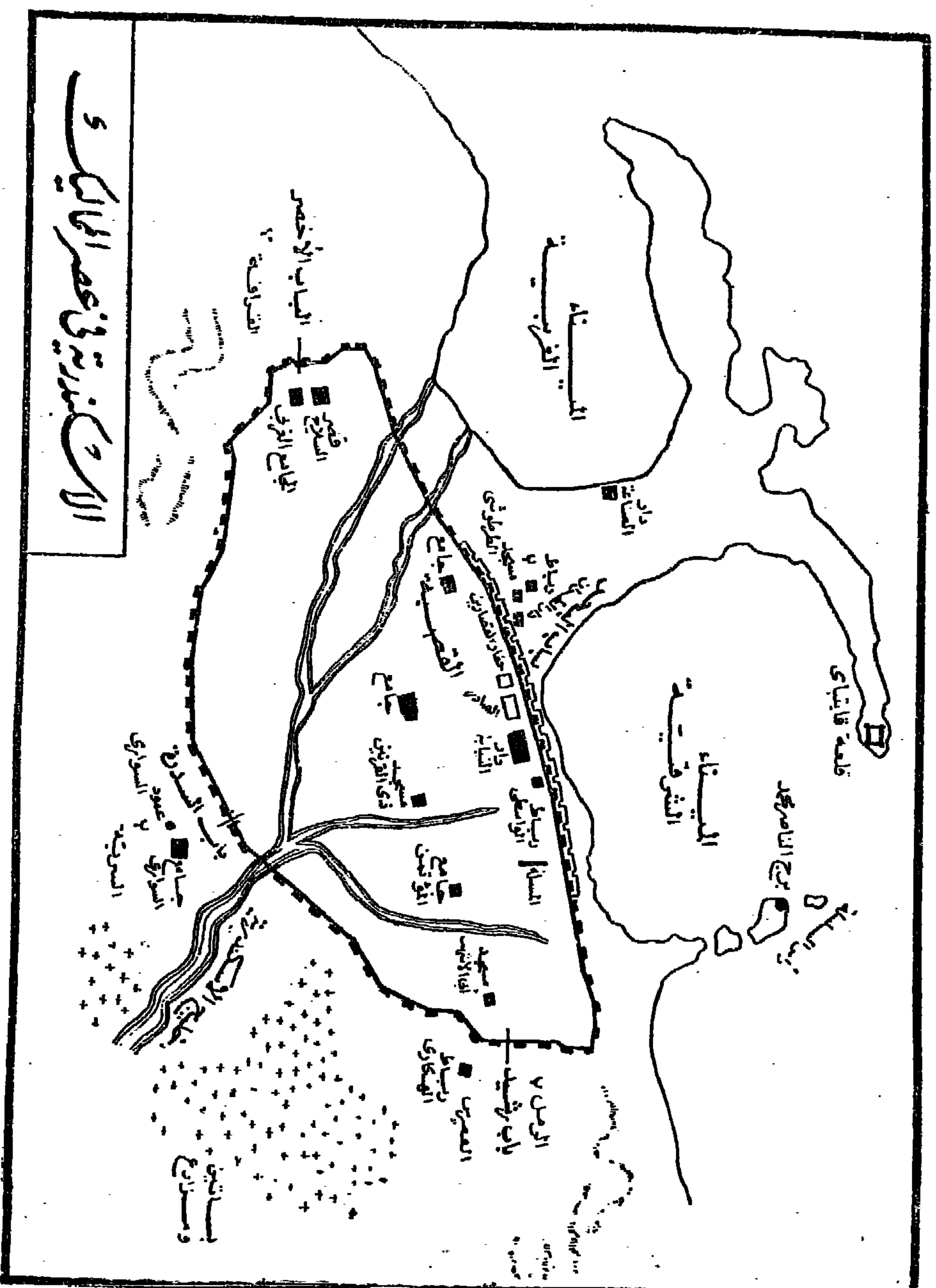
(١) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٢٩ .

أسوار المدينة ، حتى يتيسر للمسلمين إخضاع المدينة ودخولها بسهولة في حالة غزو الأعداء لها من البحر (١) .

ولا شك أن الاسكندرية اضمحلت منذ ذلك الحين ، فانكشت رقعها عما كانت عليه في أيامها القديمة . ثم أعيد بناء أسوار الإسكندرية في عصر أحمد بن طولون ، ولكن هذه الأسوار الإسلامية الجديدة لم تطوق المدينة القديمة ، وإنما اقتصررت كما ذكرنا من قبل على إحاطة المناطق المأهولة بالسكان فحسب ، وأخرج من السور منطقتان كبيرتان ، هما : المنطقة الشرقية - وكانت تضم مقابر اليونان والرومان - والمنطقة الجنوبية وكانت تضم بعض المزارع وأطلال معبد السيرايوم ، وغير ذلك من أطلال أبنية رومانية يشرف عليها عمود السواري . وهكذا تقلصت رقعة المدينة ، وفتحت فيها أبواب جديدة : ففي الشرق فتح باب سمي بباب رشيد ، وفي الغرب فتح باب يسمى باب القرافة ، وفي الجنوب فتح باب سمي باب السدرة بسبب شجرة ضخمة من أشجار السدر كانت مزروعة بجانبه ، كما سمي أيضا بباب العمود لاشرافه على عمود السواري . أما الباب الشمالي فظل كما كان في العصر البطلمي والروماني ، وعرف بباب البحر ، وكان يشرف على الميناء الشرقية .

وظلت الاسكندرية تحتفظ من حيث التخطيط بنظامها اليوناني الروماني . وتميزت شوارعها بالنظام المتعامد ، وكان يمتد من الشرق إلى الغرب

(١) أثبتت الحوادث التاريخية أن الأسوار عتبة كأداء في سبيل استرداد المدينة ، ولقد هدم عبد الرحمن الناصر أسوار إشبيلية لاعتصام الثوار بها وذلك في سنة ٣٠١ هـ (أنظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٢٠) . كذلك هدم عبد المؤمن ابن علي أسوار مدينة فاس سنة ٥٤٠ هـ بعد حصاره الطويل لها ودخلها وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا » فلم تزل مدينة فاس لا سور لها حتى بناه حفيده المنصور وأتمه محمد الناصر سنة ٦٠٠ هـ . أنظر ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ١ ص ١٢٣ (ط . تورنبرج ، اسبال ١٨٤٣ - ١٨٤٦) ، السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٤٣ .



(شكل ١٢) الاسكندرية في عصر السلطان الملك الأشرف شعبان من سلاطين المماليك البحرية

طريق فسيح كان يعرف باسم المحجة العظمى ، على نحو ما كان متبعاً في المدن السابقة على الاسلام ، مثل قرطبة (١) ، وإشبيلية ، وسرقسطة في الأندلس ، ومثل المدن الاسلامية الى تأثرت بالنظام البيزنطى ، كالمهدية ، والقاهرة ، وكان يقطعها طريق فسيح من الشمال إلى الجنوب يعرف بشارع ما بين القصرين .

ولا نعرف عن المدينة في العصر الطولونى سوى أسماء مساجدها وقد ذكرناها آنفاً ، وأهمها مسجد سليمان ، والمسجد الأخضر ، ومسجد ذى القرنين ، ومسجد عمرو بن العاص ، ومسجد موسى . كما نعرف إسم حى من أحيائها هو القصبة (٢) وآخر اسمه العادلية (٣) . أما الآثار القديمة التى كانت تزدهر بها مدينة الاسكندرية مثل عمود السوارى فقد أصبحت في ظاهر المدينة وخارجها نظراً لانكماش رقعة المدينة ، وظل هذا العمود في ظاهر المدينة في عصر المماليك ، وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك (٤) ، كما لاحظته غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (٥) .

ولم يتغير تخطيط المدينة في العصر الفاطمى عما كان عليه في العصر السابق ، وكل ما فى الأمر أنه أضيفت إلى الآثار السابقة آثار أخرى ، أقيمت في العصر الفاطمى ، مثل جامع العطارين ، وجامع الطرطوشى الذى

(١) الحميرى ص ٥٦ .

(٢) السيوطى ج ١ ص ٣٧ : نلاحظ أن إسم القصبة هذا كان يطلق على المدينة نفسها أى الجزء الأوسط الذى يحيط بالمسجد الجامع أو جامع عمرو (وكان يعرف أيضاً باسم جامع الألف عمود أو الجامع الغربى) .

(٣) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٦ . ويذكر النويرى إسم ربهضين أحدهما يسمى الرمل غرب الاسكندرية والآخر يسمى السرية في جنوبها الغربى . كما ذكر موضعاً يعرف بالقصرين .

(٤) السيوطى ج ٤ ص ٣٧ — ابن بطوطة ص ١١ .

(٥) خليل شاهين الظاهرى : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

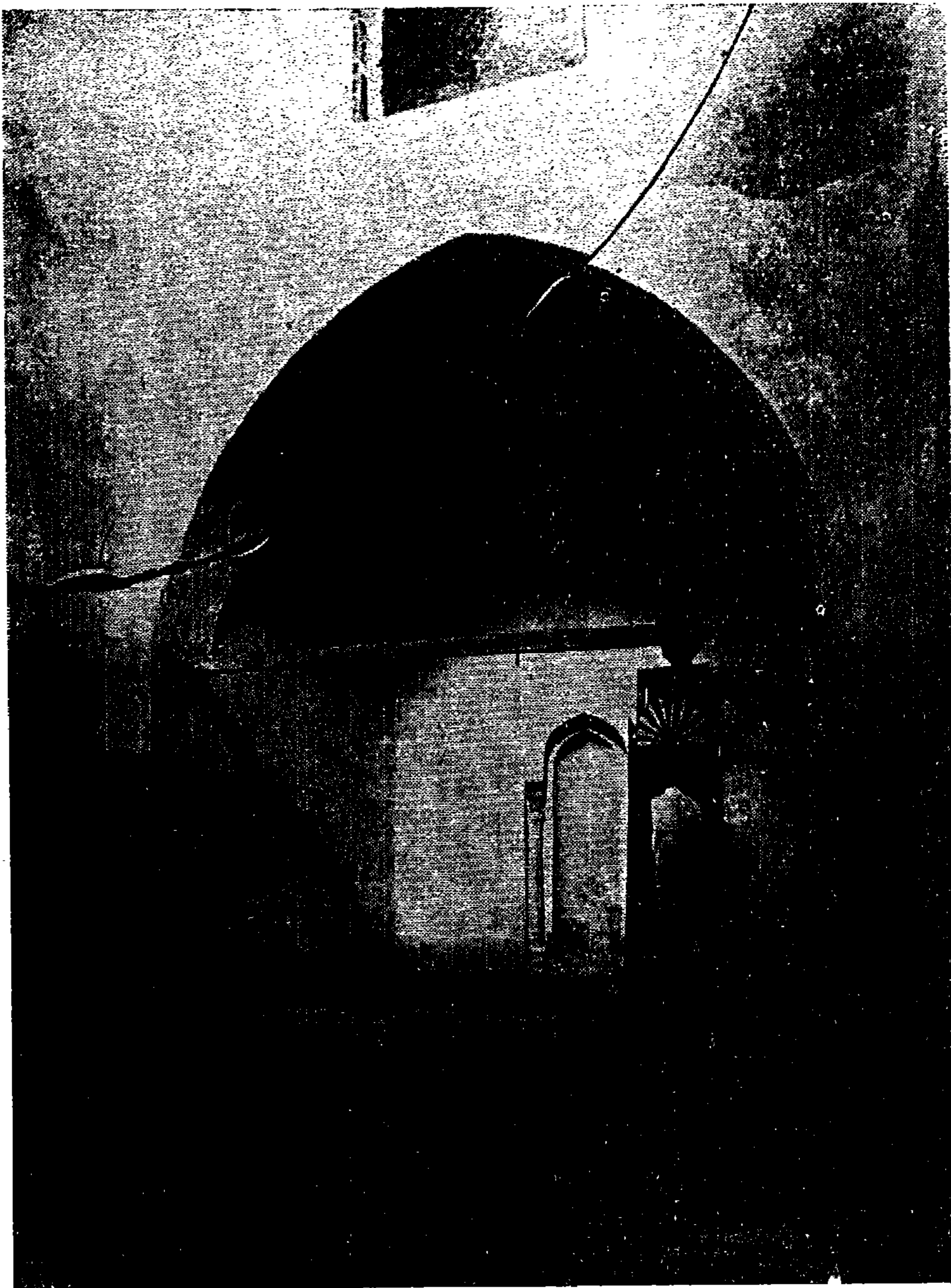
الذى أقيم خارج باب البحر ، وجامع المؤمن الذى شيد فى المحجة العظمى ،
ومدرستا ابن الوحشى وابن السلار . وأضيف إلى هذه الأبنية أبنية أخرى
فى العصر الأيوبي مثل المدرسة التى أقامها صلاح الدين ووصفها ابن جبير .

ونستدل من وصف النويرى لموكب السلطان الأشرف شعبان ، أن
الاسكندرية عمرت فى عصر المماليك بالأبنية الرائعة أمثال مسجد أبي
الأشهب ، بالقرب من باب رشيد ، ودار ابن الحياض ، فى المحجة العظمى ،
وجفار القصارين (حيث تقصر الثياب) ، والصادر (أى المخازن الحمركية) ،
وكانا يقعان بالقرب من باب البحر تجاه الميناء الشرقية . كذلك ذكر النويرى
أن السلطان خرج من باب البحر ، وسار خارج المدينة قدر ساعة : أى أنه سار
فى طريق الكورنيش الحالى المؤدى إلى الميناء الغربية . وذكر أيضا أنه مر بعد
خروجه من باب البحر بدار الطراز ، ودار العدل ، ودار الصناعة . أما قصر
السلح فكان يقع بالقرب من الباب الأخضر غربى المدينة . وكان سور المدينة
قد ازدوج فى عصر المماليك ، فاننا نستنتج من وصف النويرى لزيارة الأشرف
شعبان ، أن السور كان مزدوجا أى أنه كان يتألف من سورين : سور أساسى ،
وسور أمامى ، على نحو ما كان شائعا فى العمارة البيزنطية والعمارة الإسلامية فى
الأندلس (١) . غير أن الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال يستنتج من
نص النويرى أن هذه الأسوار كانت ثلاثة يفصل كل منها فصيل ، أى
طريق فاصل ، وذلك لأن الأشرف شعبان وفقا لرواية النويرى خرج من
باب البحر الذى يلي البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ، ثم
الثالث (٢) . ولا شك أن هذا الاستنتاج منطقى سائما لولا أننا نعتمد أيضا على

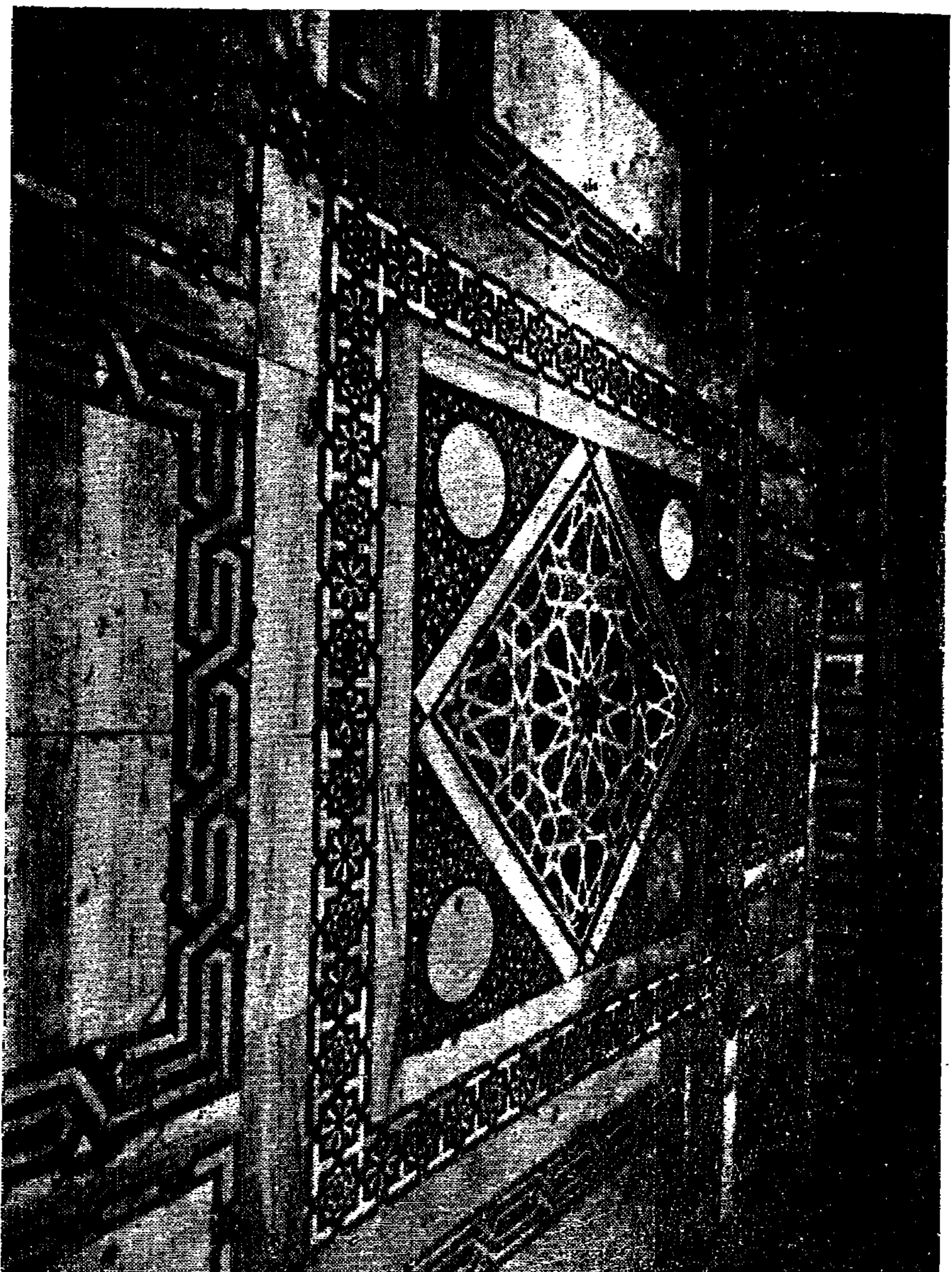
(١) المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٣٤ وما يلها .

(٢) جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبي والملوكى ص ١٠٣ ،

الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ص ٢٣٩ .



(شکل ۱۳) ایوان الصلاة بمسجد قلعة قایتبای



(شكل ١٤) أرضية مسجد قلعة قايتباي بالاسكندرية

النصوص التاريخية . فقد ذكر غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري نائب الاسكندرية في عهد برسباي في كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " ما يلي عن ثغر الاسكندرية " وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه يشتمل على سورين محكمين بها عدة أبراج ، يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة ، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حديد " (١) .

وهذا النص صريح لا يحتاج إلى تفسير ، والمشكلة التي تحتاج إلى تفسير هي مشكلة الأبواب الثلاثة للباب الواحد . فلقد عرفنا من أسوار القاهرة أن للباب بابين تفصلهما رحبة أو اسطوان ، وتعلوه قبوة كبيرة ، كما هو ممثل في أبواب الفتوح والنصر وزويلة . فاذا أضفنا بابا ثالثا للسور الأمامي ، أصبح للباب الواحد ثلاثة أبواب . ومن أمثلة هذه الأبواب الثلاثية ، باب قرطبة بمدينة إشبيلية (٢) . فهو يتألف من بابين في السور الأساسي وباب واحد في السور الأمامي الذي كان أقل إرتفاعا عن السور الأساسي ، ووظيفة السور الأمامي ، أنه يمنع العدو المهاجم من هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة . وأعتقد أن أسوار الاسكندرية في عصر الممالك كانت من هذا النوع ، وأعتقد كذلك أن بناء هذه الأسوار كان متأثرا بالأسوار الإسلامية في المغرب والأندلس ، فلقد تغلغت التأثيرات المعمارية المغربية في صميم العمارة المصرية في هذا العصر ، بسبب كثرة وفود الأندلسيين الذين حكم عليهم بمغادرة بلادهم بعد سقوطها في أيدي الأسبان ، وبسبب

(١) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك نشره Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ ص ٣٩ .

J. Guerrero Lovillo: La Puerta de Cordoba en la Cerca de Sevilla, (٢)
al — Andalus, 1953.

كثرة تردد التجار المغاربة إلى مصر (١) . ويمكننا أن نشهد السورين في خريطة للاسكندرية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي (سنة ١٦١٩ م) فالسور الشمالى من أسوارها جميعا يبدو في الصورة مؤلفا من سورين : أحدهما أكثر ارتفاعا من الآخر . كذلك يمكننا أن نميز ازدواج السور الشمالى في خريطة للاسكندرية ترجع إلى سنة ١٦٨٦ م .

وكان يفتح في أسوار الاسكندرية أربعة أبواب وفقاً لما ذكره ابن بطوطة ، إذ يقول " ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة (٢) ، وإليه يشرع طريق المغرب ، وباب رشيد (٣) ، وباب البحر ، والباب الأخضر (٤) ، وليس يفتح إلا يوم الجمعة ، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور " (٥) وكان يحيط السور الشمالى من جهة البحر خندق ، وكذلك كان يحيط السور الغربى عند الباب الأخضر خندق آخر (٦) . وكانت تدعم الأسوار أبراج مربعة الشكل ، وبأعلى الأبراج مجانيق ومكاحل ، وعلى كل برج أعلام ، وطبلخاناه ، وأبواق ، وأجراس (٧) . وكان يمتد خليج من النيل ويصب في البحر غربى المدينة (٨) . وكان

(١) عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ،
المجلة العدد ١٢ ص ٨٨ .

(٢) كان يعرف أيضا باسم باب العمود وباب البهار .

(٣) هذا الباب كان يعرف أيضا باسم باب القاهرة وباب شرق وآثاره مازالت قائمة عند ملعب البلدية .

(٤) كان يؤدي إلى القرافة الغربية ولذلك سمي أيضا باب القرافة أو الباب الغربى .

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ص ١٠ . ذكر ابن إياس أنه كان من المعتاد أن السلطان إذا دخل مدينة الاسكندرية فك أبواب المدينة وتلقى إلى الأرض حتى رحيله (أنظر ج ٣ ص ١٢٧) .

(٦) التويرى : الالام بالأعلام ، خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف المالك ص ٣٩ .

(٧) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف المالك ص ٤٠ .

(٨) نفس المرجع ص ٤٠ .



(شكل ١٥) مدينة الاسكندرية بعد الحملة الفرنسية

يتفرع من هذا الخليج شبكة مائية في باطن الأرض ، تروى الدور والبساتين (١) . وكان بخارج باب البحر فضاء فسيح يمتد حتى رأس السلسلة حيث تقوم قلعة صغيرة كان قد أقامها الناصر محمد بن قلاوون ، وفي هذا الفضاء كانت تنصب له الخيام على ساحل البحر (٢) . وفي هذا الفضاء كان السلطان الأشرف قايتباي يلعب بالكرة مع أمراء المماليك (٣) . وكانت شرافات السور تعلق منها فناديل ، وذلك في المناسبات الخلية ، عندما يزور السلطان ثغر الاسكندرية (٤) .

وكان يحوط المدينة من الشرق والجنوب الشرقي بساتين نضرة ، ومزارع خضراء ، ولكن هذه البساتين لم تلبث أن تحولت إلى خرائب في السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري . ولما استولى الأتراك العثمانيون على الاسكندرية انكشفت وتقلصت ، وافتصر عمرانها على الرصيف الممتد بين الشاطئ وجزيرة فاروس القديمة ، وكانت هذه المنطقة أيضا من أرباض المدينة حتى أواخر القرن الثامن الهجري ، فأصبحت في العصر العثماني المدينة البركية الجديدة ، أما القصبة القديمة فسميت منذ ذلك الحين بالمدينة العربية ، وأصبحت هذه المدينة لا تعدو أطلالا ودورا مهجورة تنتثر بين البساتين والحقول (٥) .

* * *

أما العماير التي أقيمت بالاسكندرية في عصر المماليك فكثيرة متعددة ، بعضها ديني ، وبعضها حربي ، وبعضها مدني . ولنتناول أهم هذه العماير بالدراسة :

- (١) ابن جبير ص ٤١ .
- (٢) ابن إياس ج ٣ ص ١٢٧ .
- (٣) نفس المرجع ص ١٢٨ .
- (٤) خليل بن شاهين الظاهري ص ٤٠ ، ابن إياس ج ٤ ص ٤٢٥ .
- (٥) جال الشيال: الاسكندرية (المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ .

(١) العمارة الدينية

نقصد بالعمارة الدينية ، العمار الى تغلب عليها الروح الدينية ، أو روح
الجهاد الدينى ، مثل المساجد والمدارس ، والحدائق ، والأربطة ، والزوايا .
وأهم المساجد التي أقيمت في عصر المماليك مسجد أبي العباس المرسي (١) ،
الذى أقيم خارج باب البحر بجوار ضريح أبو العباس سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م)
من مال كبير تجار الاسكندرية وقتئذ ، الشيخ زين الدين بن القطن . وكان
للمسجد مئذنة مربعة الشكل (٢) . ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أنه كان
في الأصل مسجدا صغيرا ، ' وفي سنة ١١٨٩ هـ جدد فيه بعض المغاربة
القاصدين الحج جزأه الذى يلي القبلة المنصورة والقبعة ، ثم أخذ نظاره في
تجديده وتوسعته شيئا فشيئا بأخذ قطعة من المقابر وبعض من المنازل التابعة
لوقفه ، وجعلت ميضأته فيما هدم من تلك المنازل ، حتى صار إلى ما هو
عليه الآن من السعة والمتانة والمنظر الحسن " (٣) . ثم جدد هذا المسجد سنة
١٢٨٠ هـ ، وفي عهد الملك السابق فؤاد أنشئ مسجد جديد لأبي العباس ،
وأنشئ أمامه ميدان فسيح يسمى ميدان المساجد ، ليشرق عليه المساجد
الخمسة المحيطة به ، وهى مسجد أبي العباسى ، ومسجد البوصيرى ، ومسجد
ياقوت العرش (٤) .

(١) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسي العارف الشهير ،
قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلى (السيوطى ج ١ ص ٢٢٤)
وقال الصفدى فى الوافى ، أنه « وارث شيخه الشاذلى تصوفا ، الأشعرى معتقدا »
(أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٩٠) . وذكروا أنه توفى بالاسكندرية فى سنة ٦٨٦ هـ
ولأهل الاسكندرية فيه عقيدة كبيرة ودفن فى قبره المعروف بالحبيانة القديمة إزاء
رباط الشاطبي خارج باب البحر من ظاهر الاسكندرية البحرى بمحرس سوار (جال الشيال :
الاسكندرية ص ٢٢٩) .

(٢) الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٦٩ .

(٤) الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٠ .



(شكل ١٦) مسجد تريانة بالاسكندرية

رباط الواسطي:

يقع هذا الرباط شرق مسجد أبي العباس المرسى ، وقد جدد ، وفقد معالمه القديمة ، وأصبح الآن لا يعدو زاوية صغيرة ، في جهتها القبالية قبة صغيرة ، يتوسطها قبران ، أمام الشرقي منها لوح رخامي مكتوب فيه " بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبي ، كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة - الآية - توفي الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو علي منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفنوح نصر بن الشيخ أبي الفضل جعفر الواسطي القاضي العدل . ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وستمائة - رحمه الله تعالى ونور ضريحه " (١) .

رباط سوار:

أقام به الزاهد نزيل الاسكندرية ، أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) ، أحد أولياء الله ، وصاحب الكرامات المشهورة (٢) ، ولا نعرف على وجه الدقة موقع هذا الرباط وإن كنا نعلم أنه يقع خارج باب البحر .

(١) حسن عبد الوهاب : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب سنة ١٩٤٧ ص ٣٩٣ جال الشيال : المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٢) ولد بشاطبة سنة ٥٨٥ هـ وقرأ القرآن ببلده القراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث كما سمع بدمشق على أبي القاسم بن مصري وأبي المعالي بن خضروا وأبي الوفاء بن عبد الحق وغيرهم ونزل الاسكندرية وانقطع لعبادة الله في رباط سوار من الاسكندرية بترية أبي العباس الراسي وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٧٢ ودفن بترية شيخه المجاورة لزاويته (نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤١) .

رباط الهكاري:

أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر باخل بن عبد الله الهكاري الاسكندري ، متولى ثغر الاسكندرية ، وكان أديبا عالما ، توفي سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ودفن عند رباطه خارج باب رشيد (١) .

دار الحديث التكريفية:

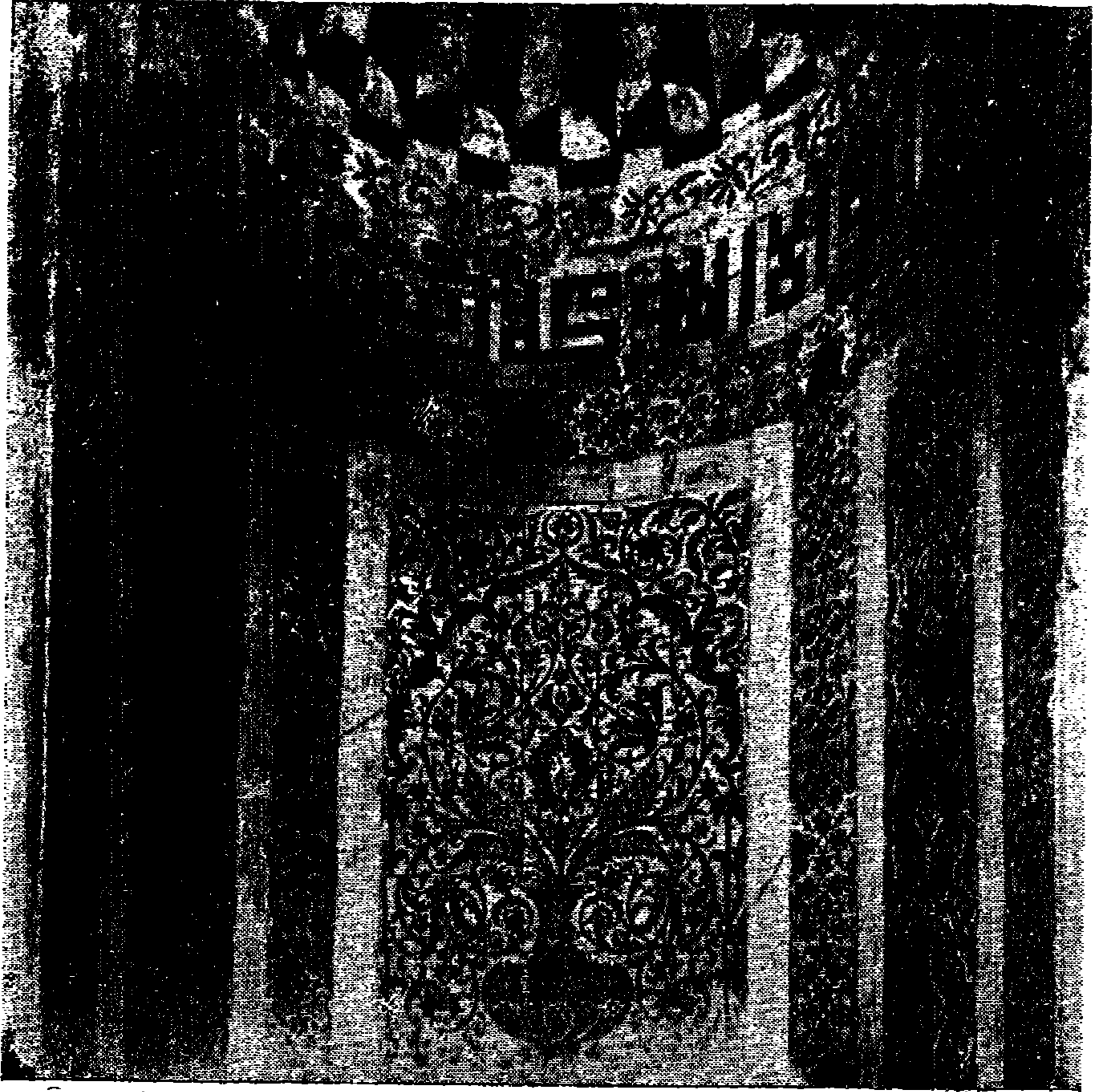
أنشأ هذه المدرسة عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن رشيد الربيعي التكريتي ، نزيل الاسكندرية ، وتقع اليوم بشارع البلقراطية قسم الحمراء ، وجعلها للدراسة الحديث والفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وقد جددت هذه المدرسة ، وحولت إلى زاوية صغيرة في القرن الثاني عشر الهجري . وتحتفظ هذه المدرسة اليوم باللوحة التأسيسية ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتي لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمة الله عليه في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه) وكانت في الاسكندرية دار أخرى للحديث هي دار الحديث النبهية ، كان يقوم بالتدريس فيها إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافي الاسكندري المتوفى سنة ٧٠٤ هـ (٢) .

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق ذكره من العماير الدينية بعض المساجد التي أقيمت لصق أضرحه : الشيخ ياقوت بن عبد الله الحبشي المعروف

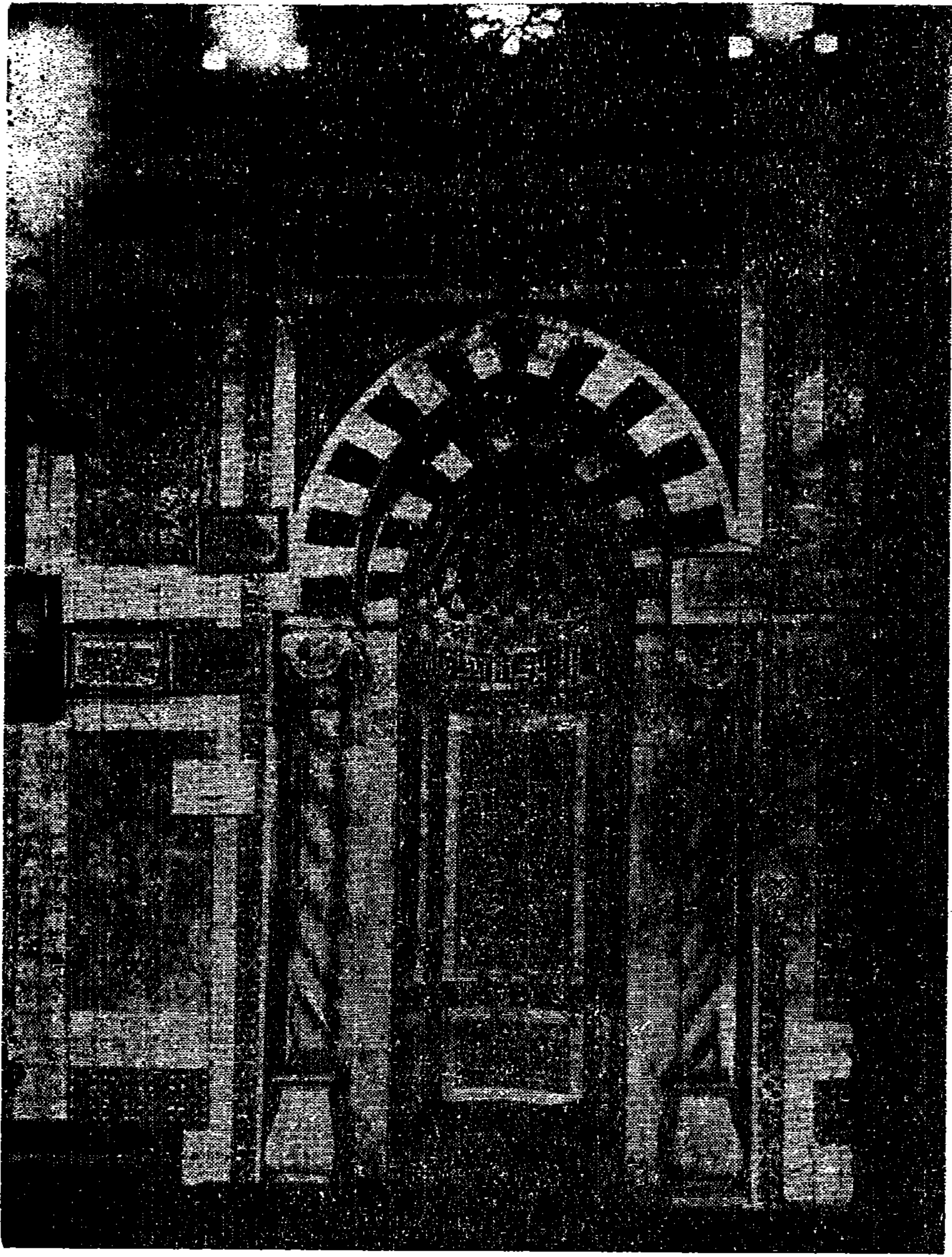
(١) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٩٣ ، جال الشيال : المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٣) نفس المرجع .



(شكل ١٧) زخارف المحراب بجامع جوريجي



(شکل ۱۸) محراب مسجد جورجی



(شكل ١٩) مدخل مسجد ياقوت العرش

باسم ياقوت العرش ، تلميذ أبي العباس المرسى (توفي سنة ٧٣٢ هـ ودفن بجوار قبر أستاذه) ، والشيخ تاج الدين عطاء الله ، أبو العباس أحمد بن عبد الكريم الجندى الاسكندرى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٧ هـ ومسجده بالاسكندرية ، والشيخ شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدلاصى المولد ، المغربى الأصل ، البوصيرى المنشأ ، صاحب البردة والهمزية (ولد بدلاص سنة ٦٠٨ هـ وتوفى فى ٦٩٥ هـ) . ويلاحظ أنه يحيط بجامع أبي العباس المرسى أربعة مساجد ، تطل جميعا على ميدان يسمى ميدان الجوامع هى : جامع سيدى البوصيرى ، وجامع سيدى أبي الفتح ، وجامع سيدى ياقوت العرش ، وجامع سيدى نصر الدين . وكانت هذه المنطقة تؤلف جبانة ، تقع خارج باب البحر ، إزاء رباط الشاطبي المعروف برباط سوار . ويضيف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى إلى هذه العماير الدينية إسم مدرسة يقال لها مدرسة الكوبك ، كان صاحبها من أعظم تجار الثغر (١) ، ولعل هذا التاجر أحد أعقاب أسرة الكوبك المشهورة التى ذكرها ابن بطوطة عند زيارته لمصر ، وقال أنه لما ثار الناس وتجار المسلمين على والى الاسكندرية سنة ٧٢٧ هـ ، بعث الناصر لنجدته أميران ، هما الجمالى وطوغان " فقبضا على كبار أهلها ، وأعيان التجار بها ، كأولاد الكوبك وسواهم " (٢) .

وقبل أن ننتقل إلى دراسة العمارة المدنية ، ينبغى أن نشير إلى مسجدين فى المدينة التركية أسسا فى العصر العثمانى ، أحدهما مسجد الحاج إبراهيم تربانة الذى أسس فى سنة ١٦٨٥ م ، والثانى مسجد عبد الباقي جوربجي الذى أنشئ سنة ١٧٥٨ م فى الحى التركى أو حى الحمرى ، وهو المنطقة التى عمرت بعد الفتح العثمانى ، وفيها تجتمع بعض آثار العثمانيين مثل سوق ووكالة جوربجي (٣) .

(١) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف المسالك ص ٤١ .

(٢) ابن بطوطة : ص ١٥ .

(٣) حسن عبد الوهاب : المساجد الأثرية ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

(ب) العمارة المبرنية :

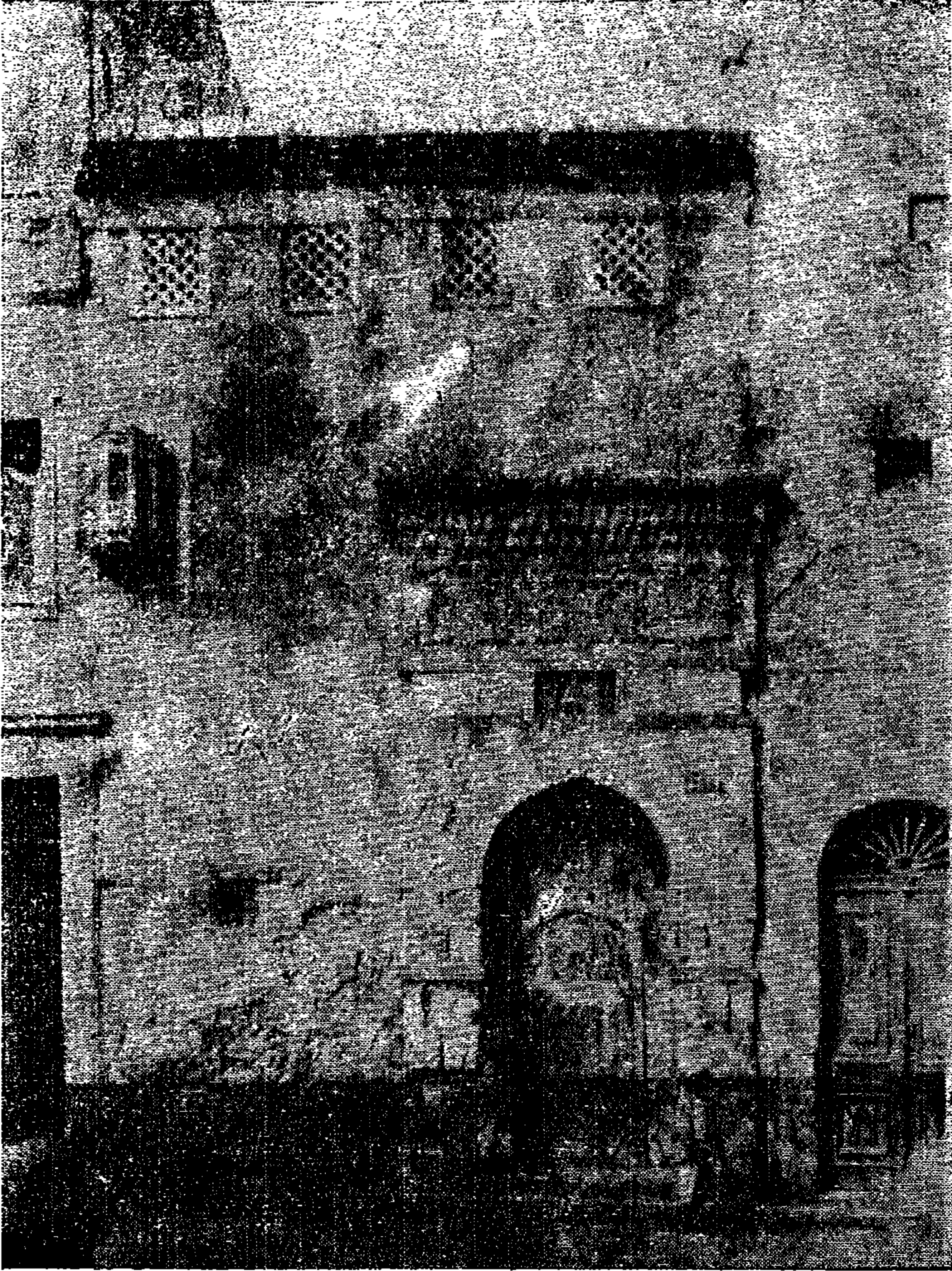
١ - القصور :

عمرت الاسكندرية بالقصور البديعة التي شيدها أمراء المماليك ، وللأسف لم يصل إلينا من أسماؤها إلا عدد قليل للغاية ، أهمها قصر السلاح ، وكان يقع بالقرب من الباب الأخضر ، وكان يتألف من قاعات كثيرة مملوءة بالعدد والأسلحة ، كما كان يضم مسجدا (١) . أما قصر النائب ، المسمى بدار النيابة ، فكان داخل أسوار المدينة بالقرب من باب البحر ، وكان هذا القصر يطل على الميناء الشرقية . ويذكر ابن شاهين الظاهري قصرا آخر يعرف بدار السلطان "بها دور متسقة وهي عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها دار عظيمة ، وبها تخت الملك ، قيل إنه لم تعمّر دار وسعها ، أنشأها في الأصل المقوقس ، ثم بعده جوهر الموتفكي ، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب ، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبها من الأعمدة الرخام الملونة ، والقياع المفروشة بالرخام الملون ، والأماكن المزخرفة ، والبساتين الحسنة ، ما يطول شرح وصفه . وهي مشرفة على البحر المحيط ، لا يسكنها إلا السلاطين خاصة (٢) . ولم نزل إلى الآن مقفولة . وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف (برسبای) على السكنة فيها ، حين كنت نائب الساطة الشريفة بالثغر ، فأمر لي بذلك ، وزوجني بأخت زوجته ، خوند الخوندات جلابان ، تغمدهم الله برحمته ، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الثغر . ونصب بالقاعة العظمى الحلل مالا يوصف ، ومن جملة ذلك سبعة بشاخين مختلفه الألوان ، وأشياء عجيبة مما يطول شرحه " (٣) .

(١) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف المالك ص ٤٠ ، جمال الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٢) أنظر (الملحق ز) ففيه وصف لهذا القصر .

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري : المرجع السابق ص ٤٠ .



(شكل ٢) واجهة أحد الدور القديمة بالاسكندرية
(خلف مسجد أبي العباس)

٢ - الدور :

كانت الاسكندرية في العصر الاسلامي تزخر بالدور الفخمة التي أخذها المسلمون من الروم فسميت لذلك أنخاند ، وذكروا أن عمرو حين افتتحها أحصى دورها ، فوجد أنها أربعة آلاف دار ، محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الملون ، وفي كل دار منها حمام تختص بها . ومضت موجة الفتح ، وأقام العرب في هذه الأنخاند ، ومالبت المدينة أن تعربت ، وأقيمت فيها بجانب الدور الحكومية مثل دار الامارة ، ودار الطراز ، والأهراء ، وبيت المال ، دور أخرى خاصة ، مثل الدار التي أقامها الزبير بن العوام عند الفتح ، والدار التي نزلها خمارويه عند مريوط من ضواحي الاسكندرية (١) . وتفن أهل الاسكندرية في العصر الفاطمي في إنشاء دورهم ، فكانت دار أحد قضاتها وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد أقرب إلى القصر الربيعي من القصور الكبرى . وكانت تحتوي على صحن فسيح ، مغروس بأطياب الأشجار ، وتتوسطه نافورة من الرخام ، يندفع منها الماء ، ثم يتساقط في بركة (٢) . وكان المظهر الخارجي للدار الاسلامية بسيطا كل البساطة ، يخلو عادة من النوافذ - باستثناء بعض المشربيات في الغرف العليا - ، وهو مظهر يتعارض كلية مع المظهر الداخلي ، حيث تركز كل مظاهر الحياة الأسرية ، وحيث تراكم جميع الزخارف . ويمكن تفسير الاهتمام بداخل البيت دون خارجه تفسيراً نفسياً ، بأن المرأة المسلمة كانت لا تخرج من بيتها إلا نادراً ، وكانت تقضي كل حياتها في داخل بيتها ، فمن الطبيعي إذن أن يهتم البناء بداخل البيت ، فيزين الجدران بزخارف

(١) محمد عبد الهادي شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ص ٨٦ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠ .

الحصن ، ويتألق في كسوتها بالرخام ، والزليج (الزليزلى) ، ويغرس الأشجار في الفناء ، حتى تعوض المرأة ما كانت تفقده بعزلتها عن الحياة الخارجية ، فتجد بالداخل ما ينفث عنها ، ويسرى عن همومها (١) .

أما في عصر المماليك ، فقد تكيفت الدور وفقاً لعوامل مناخية واجتماعية ودينية . فقد شاع بناء المقاعد ، وهي عبارة عن قاعة مفتوحة من الجهة البحرية ، كما كان يتوسط الدار صحن مكشوف تزيينه نافورة ترطب مياهها سخونة الجو (٢) . وشاع استخدام المشربيات في واجهات المنازل ، ووظيفة المشربية سد الفتحات المطلّة على الخارج ، وتمكن النساء من رؤية ما يدور في الشوارع ، دون أن يراهن أحد . وكثيراً ما كانت الدار تنقسم إلى قسمين : قسم بالطابق الأرضي خاص بالرجال يعرف بالسلامك ، وقسم بالطابق العاوى خاص بالحريم يسمى الحرمك (٣) . ولم يتبق للأسف شيء من آثار الدور المملوكية . وكل ما تحتفظ به الاسكندرية الآن من الدور ، بعض الدور التي أقيمت في العصر التركي المتأخر بحى الحمرك وحى المنشية .

٣ - الحمامات :

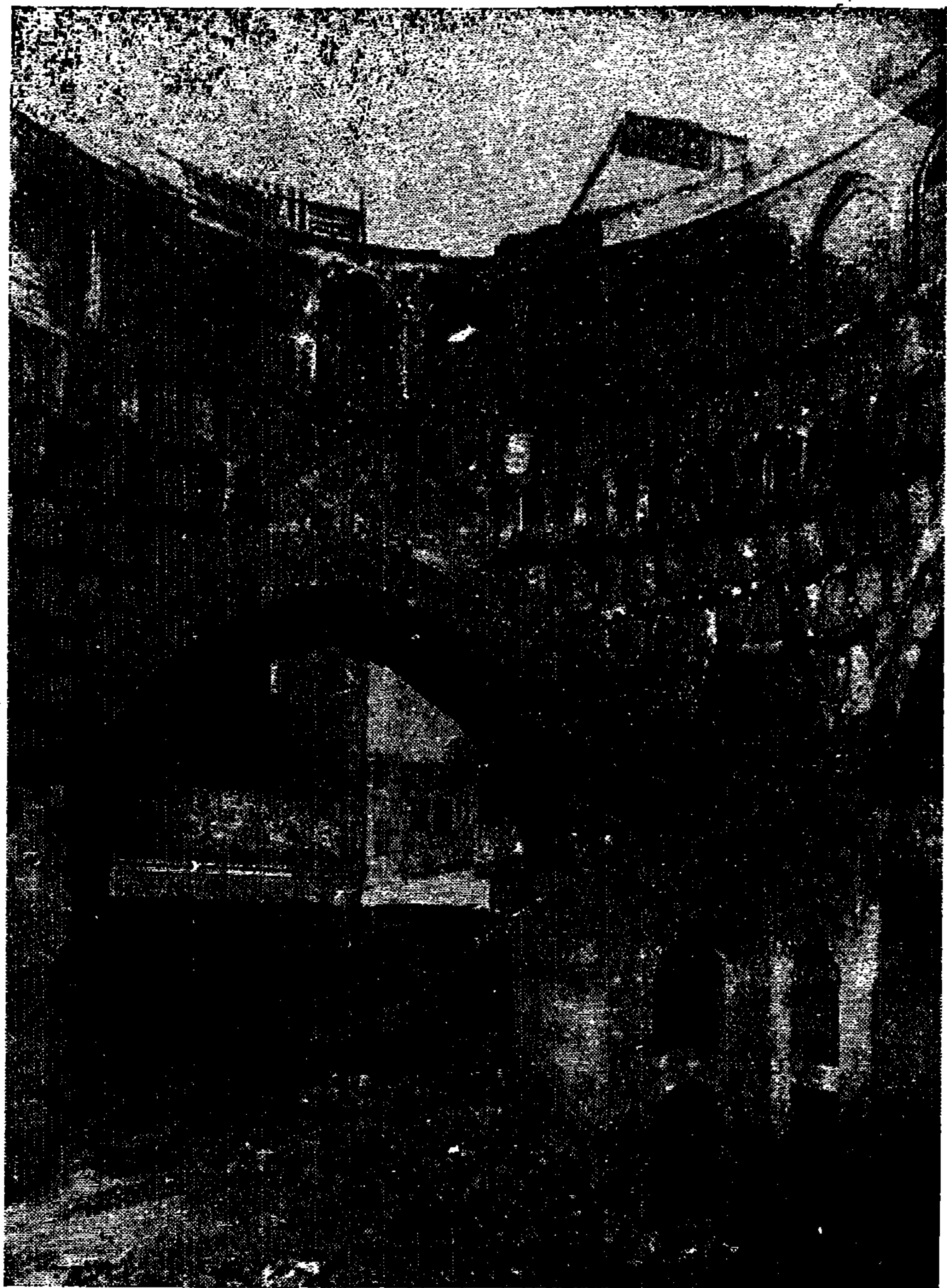
تعتبر الحمامات من أهم المنشآت في المدينة الإسلامية ، وكانت كثرة الحمامات وتعددتها هي الظاهرة البارزة في مدينة الاسكندرية منذ العصر الروماني . فقد وجد العرب عندما فتحوا الإسكندرية نحو ١٢ ديماساً أصغرهما يسع ألف مجلس (٤) . وكثير بناء الحمامات بالإسكندرية في العصر الإسلامي على نحو ما حدث في القسطاط ، فقد ذكر المقرئ أن القسطاط كانت تحتوى على ١١٧٠ حماماً ، وهي مبالغة ظاهرة ، ومع ذلك

(١) السيد عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران ص ٦٠ .

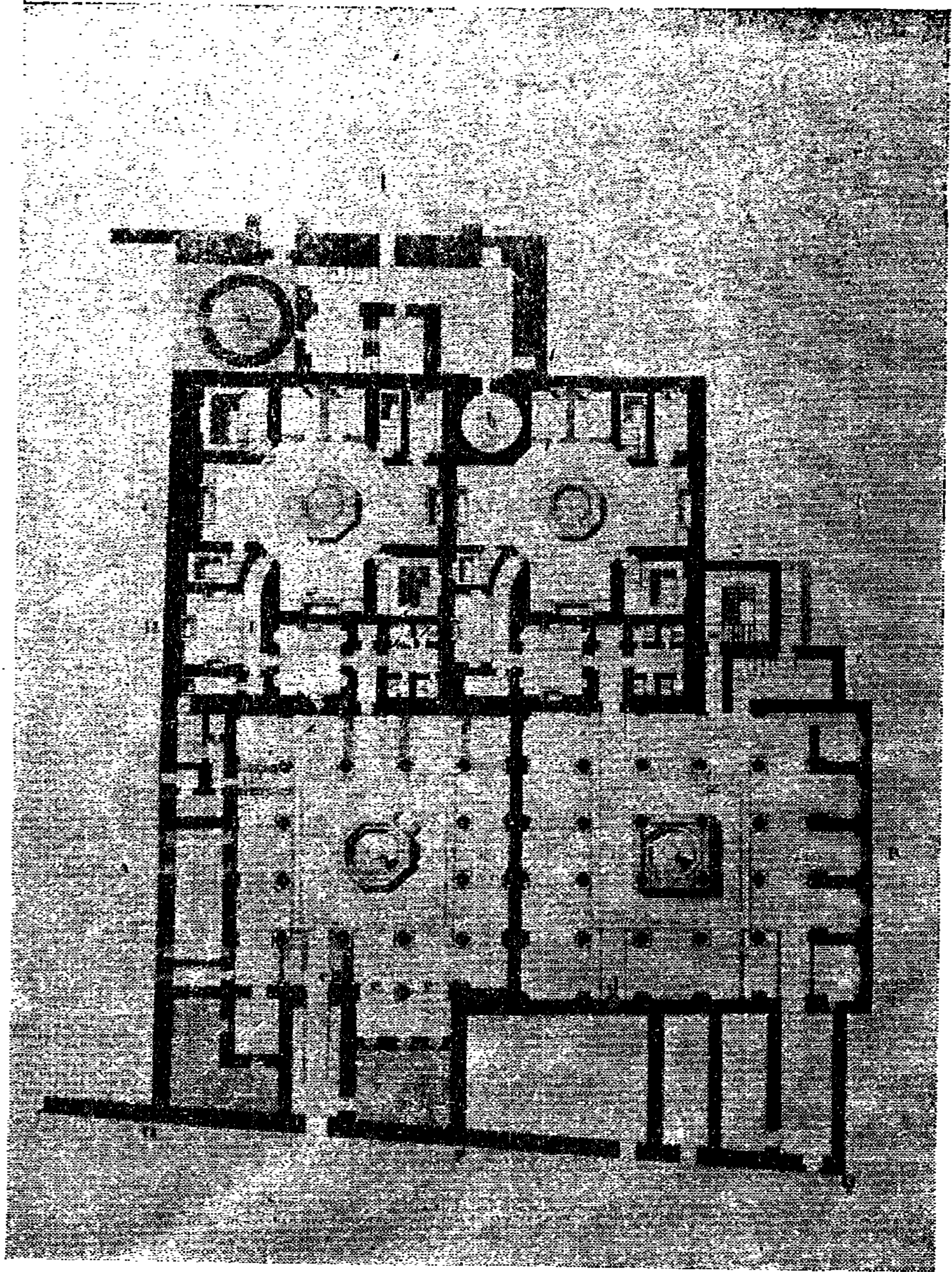
(٢) كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٣

(٣) كمال سامح : المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٤ .



(شكل ٢١) حمام المؤيد بالقاهرة



(شكل ٢٢) تصميم الحمام بالاسكندرية

فهى تدلنا على كثرة بناء الحمامات فى الفسطاط . والواقع أن مكان الحمام فى العمارة الإسلامية يتبع مكان الدار ، فان عادة الاستحمام كانت من العادات المتصلة فى الإسلام ، وذلك للطهارة والنظافة . ولا شك أن الإسكندرية كانت تضم عددا كبيرا من الحمامات ولكن هذه الكثرة لاتمنع من ضياعها . ويذكر الأستاذ ادمون بوتي Edmond Pauty أنه عثر فى الإسكندرية على ستة حمامات قديمة (من العصر الإسلامى ولعلها من أواخر عصر المماليك وأوائل العصر العثمانى) هى : حمام حسن بك عبد الله بكوم الشقافة - حمام جامع الشيخ بشارع جامع الشيخ - حمام الذهب بشارع صلاح الدين - حمام الناصورى بشارع الضبطية - حمام المصرى بشارع ساحل الغلال - حمام الشيخ بشارع أبى الدرداء . وكان حمام الذهب أجمل وأعظم هذه الحمامات جميعاً ، وكان يتردد إليه الرجال والنساء على السواء ، ويشتمل على أربعة مغاطس . ونظام بيت المسلخ (١) فى هذا الحمام وعناصره المعمارية تدل دلالة قاطعة على قدمه . وكان يتوسط بيت المسلخ قبة (لم يبق منها سوى المقرنصات) وتقوم على أربعة أعمدة من الرخام رؤوسها كورنثية ، اتخذت من بعض الأبنية البيزنطية (٢). وفى كتاب وصف مصر Description de l'Egypte لوحة تصور حماما للنساء وللرجال مكتمل العناصر ، كما نجد تصميما لهذا الحمام ننشره فى هذا الكتاب . (شكل ٢٢) ونلاحظ أن بيت المسلخ فى هذا الحمام يتبع النظام المعمارى الشائع فى عصر المماليك ، بقبته المرتفعة ، القائمة على ثلاثة طوابق من صفوف المقرنصات ، كما أن جوفاته المقوسة بالأركان وعقوده ، تذكرنا بالقاعة الكبرى فى حمام المؤيد بالقاهرة (٣) (شكل ٢١) .

(١) بيت المسلخ هو المكان الذى يتجرد فيه الرء من ثيابه ويتأزر بازار قبل الدخول فى البيت الساخن .

(٢) E. Pauty: les Hammams du Caire, le Caire, 1933, p. 40

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

٤ - الصحاريج والخزانات :

كانت ترعة الخليج تخترق مدينة الاسكندرية وتتشعب إلى فروع تصب في البحر ، وكانت تتفرع منها شبكة من القنوات المائية تمتد في جوف الأرض ، وتصل إلى الدور والبساتين . وقد شاهد ابن جبير هذه الظاهرة فعبر عنها بقوله : ” ومن العجب في وضعه (وضع هذا الثغر) أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، وتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضها “ (١) . وقد كشفت الحفائر الأثرية التي تجريها البعثة البولندية عن بعض هذه الصحاريج والخزانات المقبأة . ويغلب على الظن أنها ترجع إلى العصر الإسلامي .

٥ - الفنادق :

الفندق أو الخان بناء على قدر كبير من الأهمية ، وكان يقوم بوظيفتين في آن واحد : خزن كميات كبيرة من السلع قبل توزيعها على تجار القطاع وإيواء التجار الغرباء (٢) . وكانت الإسكندرية تزخر بعدد كبير من هذه الفنادق وذلك لنشاطها التجاري الكبير ، وكانت تضم عدداً من الفنادق الأجنبية لاستعمال التجار البنادقة والجنويين والبيزيين والفلورنسيين والقبارصة والفرنسيين والأرغونيين والقطالانيين والمغاربة .

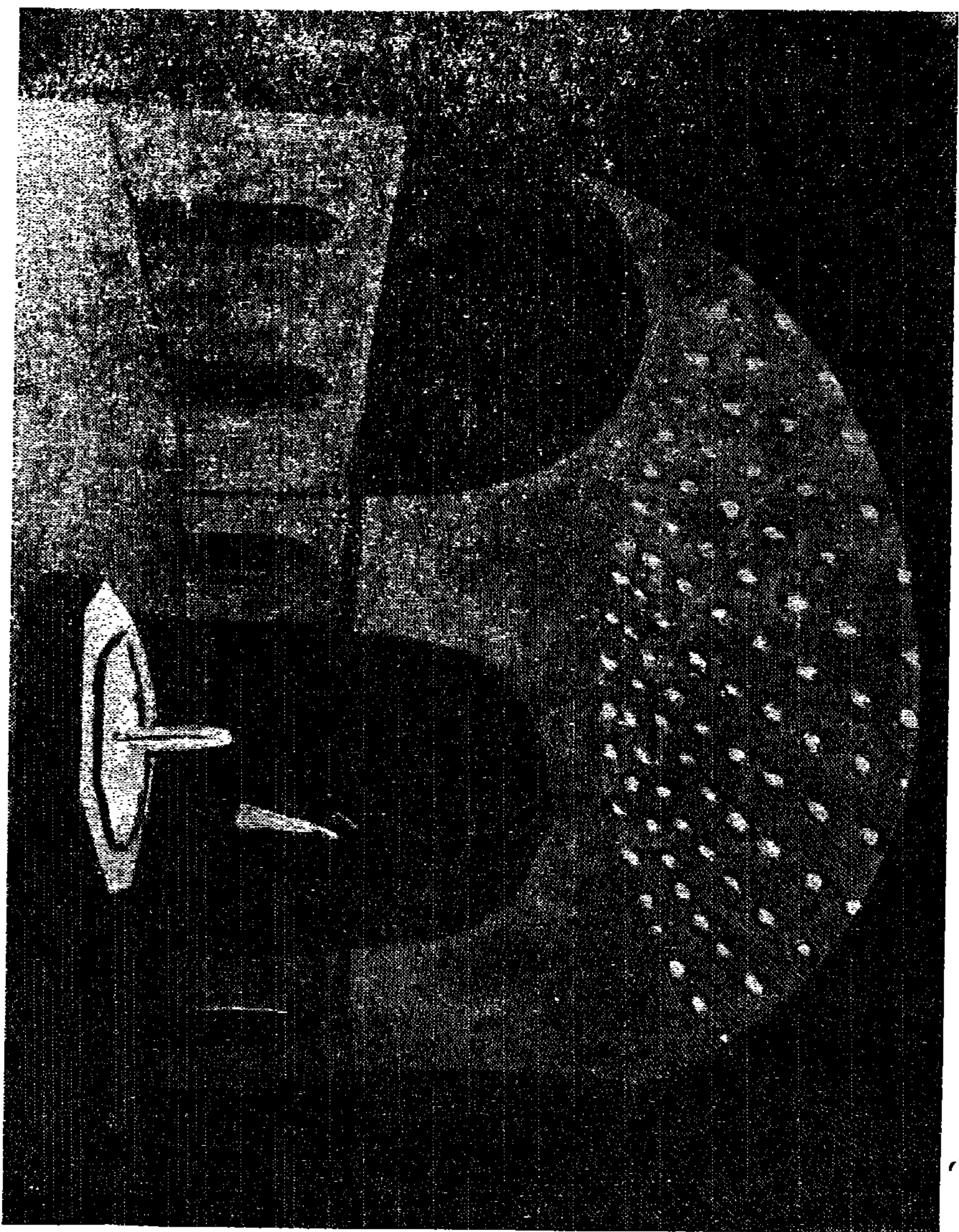
٦ - دار الصناعة :

كانت بالاسكندرية في العصر الأيوبي دار صناعة واحدة (٣) تقوم بإنشاء السفن اللازمة للأسطول المصري ، ولعلها الدار التي أسسها عبد الله بن

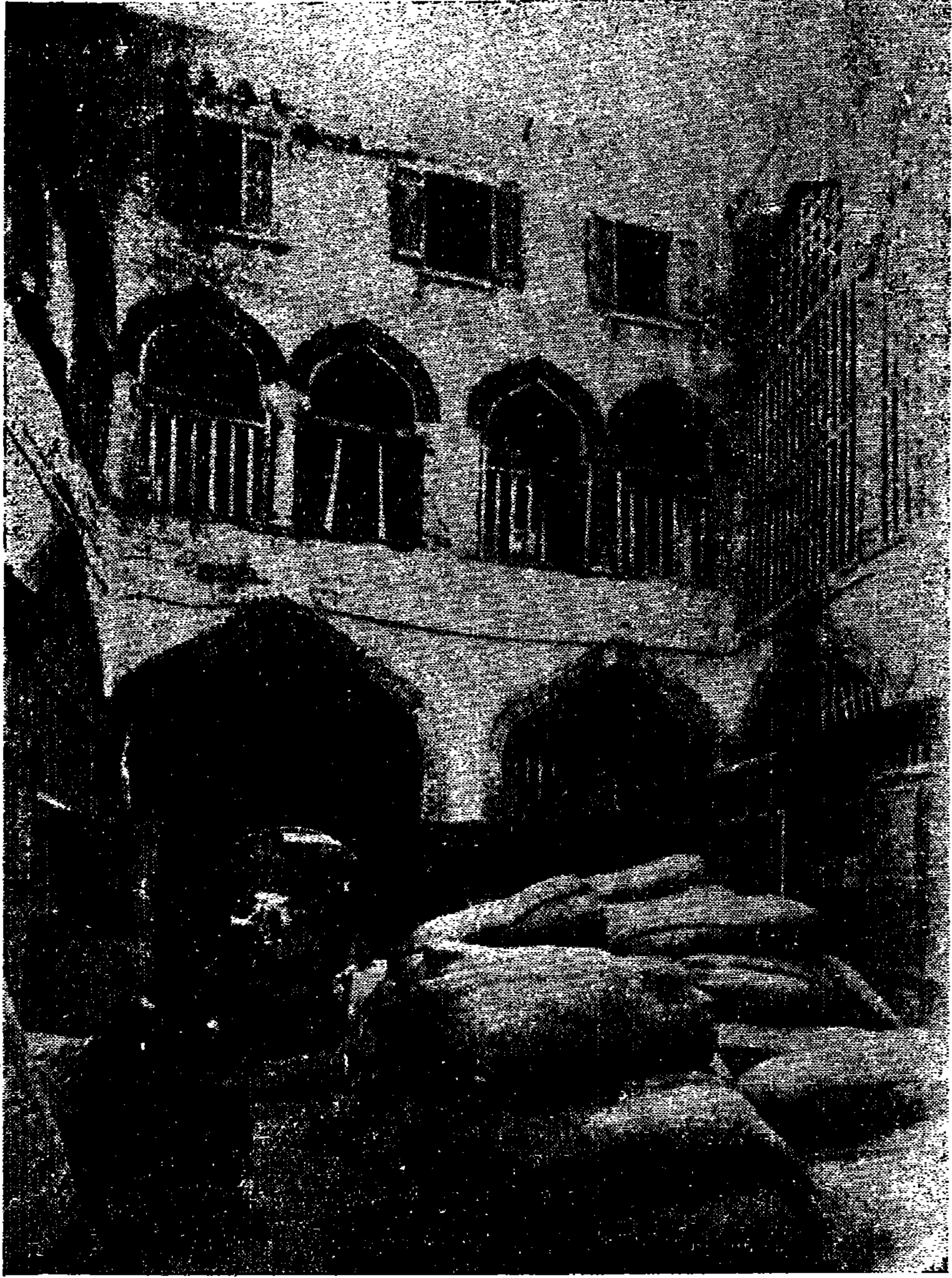
(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : التخطيط مظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى ص ٥٧ .

(٣) ابن مماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .



(شكل ٢٣) داخل أحد حمامات الإسكندرية



(شكل ٢٤) وكالة جورجی

سعد بن أبي السرح (١) . ويبدو أن هذه الدار كانت قائمة بجوار باب البحر . ويستدل من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان ، أنه كانت بالاسكندرية داران لصناعة السفن : إحداهما بالميناء الشرقية والأخرى بالميناء الغربية ، وكانت هاتان الداران تنتجان أنواعا مختلفة من السفن مثل القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشوانى والشياطى والسلالير والعشاريات والبطس والحراريق (٢) .

٧ - دار الضرب :

يذكر ابن مماتي أنه كانت بثغر الإسكندرية دار لضرب ، وظيفتها سبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف ، كما كانت هذه الدار تقوم بسبك الفضة وعمل الدراهم . وظلت هذه الدار قائمة في عصر المماليك في أيام الأشرف شعبان (٣) . وأضاف الظاهر برقوق إلى هذه الدار داراً لضرب عملة الفلوس (٤) فكان أهل الإسكندرية لا يتعاملون إلا بالدراهم الفضية المسماة باسم المسودة . فكانت تسمى عندهم بالورق (٥) .

(١) سيدة الكاشف مصر في عصر الولاة ص ٥٦ ، جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٤ .

(٢) القراقر : سفن لحمل البضائع ، والطرادات سفن لها أبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . والغربان سفن تحمل الغزاة وسيرها بالقلع والمجاديف والشوانى سفن حربية كبيرة ذات أبراج والشياطى سفن تجر ثمانين مجدافاً وظيفتها الاستطلاع . والعشاريات سفن لحمل البضائع تسير بعشرين مجدافاً والبطس نوع من السفن الحربية الكبيرة تستعمل لحمل المجانيق والعرادات ، والحراريق سفن حربية تحمل الأسلحة المحرقة كالنار الاغريقية .

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكى ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

(٤) المقرئى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧١ .

(٥) نفس المرجع ص ٦٥ .

٨ - دار الطراز :

ذكر النويرى عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان أن دار الطراز بالتغر كانت تقع بالقرب من دار صناعة السفن ، وأنها حظيت بزيارة السلطان لها وأنه " أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدرات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . . . وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيوط الطالعة والهابطة ، إلى أن يكمل كل طائر غيره " (١) . ولا شك أن دار الطراز بالإسكندرية في عصر المماليك هي نفسها التي كانت قائمة منذ بداية الفتح الإسلامى مع بعض التعديلات اللازمة . ويرجح الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أن يكون أصل دور الطراز هو الجنس *Gynœceum* التي وجدها العرب في الإسكندرية عند الفتح (٢) لأن الإسكندرية كانت قد اشتهرت في العصر البطلمى والرومانى بنسج الحرير ، وكان الجنس ملحقا بقصر الوالى (٣) . وذاعت شهرة الإسكندرية في العصر الإسلامى ، إذ كانت منسوجاتها تصل إلى سائر أقطار الأرض . وكان أكثر هذه المنسوجات شهرة الثياب الكتانية المعروفة باسم الشرب (٤) . واشتهرت الإسكندرية بصناعة الوشى والسقلاطون

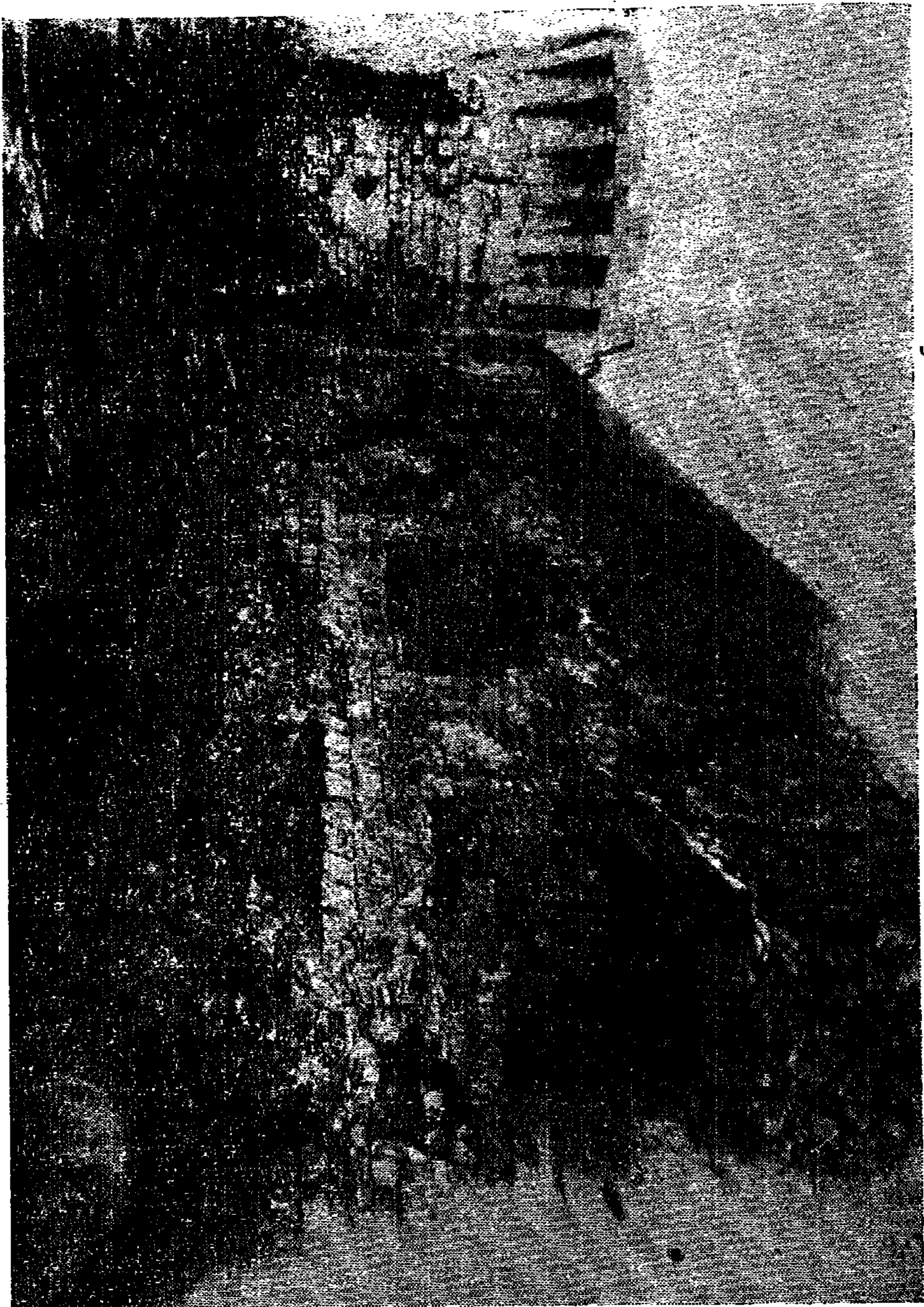
(١) النويرى : اللام بالاعلام بما جرت به الأحكام - جال الشيال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكى ص ١٠٢ .

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٢ ،

Alexandria as a textile centre, B. I. A. C., t. t. XIIè.

(٣) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٤) سيدة الكاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٥٦ .



(شكل ٢٥) قلمة قايتباي : منظر قديم لأحد أبراجها المستديرة

والشرب والمنمر (١) والمعرج (ذى الدالات) والطر دوحش (٢) ،
وستحدث عن أنواع هذه المنسوجات عندما نقوم بدراسة صناعة النسيج .

(ج) العمارة الحربية:

كان سور الاسكندرية فى العصر الفاطمى ما يزال سليما منذ أن أسسه
أحمد بن طولون ، لذلك لم يتلق من عناية الخلفاء الفاطميين إلا قدرا ضئيلا .
ففى خلافة الأمر بأحكام الله قام والى الاسكندرية بتجديد بعض أجزائه
سنة ٥١٧ هـ كذلك أقام الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار برجا عند باب
البحر عرف ببرج ضرغام (٣) فلما قامت الدولة الأيوبية فى مصر اهتم
صلاح الدين بمدينة الإسكندرية اهتماما خاصا وذلك لتكاتف أهل الاسكندرية
معه عندما حاصرها الصليبيون ، فأمر باصلاح أسوار المدينة سنة ٥٦٩ هـ
كما أمر بترميم حصونها وأبراجها ، وقدم إلى الإسكندرية فى رمضان سنة
٥٧٢ هـ ليشرف بنفسه على أعمال الترميم .

ويبدو أن أسوار الإسكندرية — خاصة الأجزاء الشمالية منها — أصيبت
ببعض الأضرار فى أواخر عصر الدولة الأيوبية ، الأمر الذى دفع بالظاهر
بيبرس إلى زيارة المدينة عقب توليه السلطنة لترميم أسوارها والعناية بها ، وقد
لاحظ ابن بطوطة حصانة هذه الأسوار عند زيارته للإسكندرية عام ٧٢٥ هـ
(١٣٢٤ م) .

ثم تعرضت أسوار الإسكندرية مرة ثانية للتخريب عندما غزاها
القبارصة بقيادة بيبر دى لوزنيان سنة ٧٦٧ هـ ، فأمر الأشرف شعبان نائبه
على الاسكندرية خليل بن عرام أن يرمم ما تهدم من أسوارها ، وقدم
السلطان بنفسه لزيارة المدينة والاشراف على تحصيناتها سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م)

(١) يرى الدكتور مرزوق أنه سمي كذلك بسبب الرسوم التى تصور النمر
ونعتقد أن سبب تسميته بالنمر أنه كان يزدان بالزخارف المخططة .

(٢) Marzouk: Alexandria as a textile centre, P. 127.

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

ويبدو أن السور الشمالى هو الذى أصيب أثناء غزوة القبارصة ، فرممه ابن عرام وجعله سورا مزدوجا يتألف من سور أساسى وستارة أمامية أو " حزام برانى " ، فقد وصفه غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى بأنه مكون من سورين (١) . وقد ذكرنا أنه تأثر فى ذلك بالنظام الشائع فى تحصينات الأندلس . وعمل الأشرف قايتباى على حماية الاسكندرية من أى غزو بحرى ، فأمر بإنشاء برج (قلعة أو طابية) فى نهاية اللسان الشرقى من جزيرة فاروس القديمة ، على أساس منار الاسكندرية الذى تهدم فى ذلك الحين ، لذلك اتخذت القلعة الجديدة شكل مربع (يتفق مع قاعدة المنار) . ويذكر المؤرخ المصرى ابن إياس إنه " توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بشجر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا معظما " (٢) . هذا البرج مربع الشكل يدعم كل ركن من أركانه برج صغير مستدير الشكل تتوجه شرفاته . ويضم بناء هذا البرج أو الطابية عدة أبنية منها مقعد مطل على البحر ، وجامع بمثلثته ومنبره (تزدان أرضيته بفسيفساء غاية فى الروعة والجمال) ، وطاحون وفرن وعدة حواصل . وكانت تعلو باب القلعة لوحتان على كل منها نقش كتابى نقرأ فيه : " عز مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره " . ولكن هاتان اللوحتان فقدتا . وهناك لوحة من الرخام على الباب المؤدى إلى الصحن عليها نقش كتابى ترجع إلى أيام السلطان قانصوه الغورى نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم . رسم بأمر مولانا المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله ملكه أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالإسكندرية سلاح مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن خالف ذلك من جماعة البرج من ممالك وعبيد وزرر كاشية وخرج منه بشىء شتى على باب البرج

(١) أنظر الفصل الخاص بالتخطيط والعمران ص ١١٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢٨ .



(شکل ۲۶) صحن قلعة قاتینای

وعليه لعنة الله . بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة (١)
أما مسجد الطابية ، فقد ظل يحتفظ بمئذنته حتى الحملة الفرنسية (انظر
شكل ٢٩) ، ثم تلاشت بعد ذلك وكانت لحوادث الاسكندرية في النصف
الثاني من القرن ١٩ م أثر كبير في تخريب القلعة وعملت إدارة حفظ
الآثار العربية على ترميمها وصيانتها (٢) .

ثانيا - الحالة الاقتصادية :

١ - التجارة :

كانت الاسكندرية أهم ثغور مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى
الفتح العثماني . فقد ظلت الاسكندرية بعد الفتح العربي طريق التجارة بين
الشرق والغرب ولم تفقد مكانتها التجارية في العصر العباسي على الرغم من
سيطرة بغداد لتجارة العالم الاسلامي . وهكذا احتفظت الاسكندرية بعظمها
التجارية القديمة فاليها كانت تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتميز من
قماشها جميع أقطار الأرض (٣) ، لذلك انتعش الاقتصاد الاسكندري انتعاشا
ملحوظا بسبب الرسوم الباهظة التي فرضتها الدولة على السلع والمتاجر التي
يأتى بها التجار الفرنج ، (وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور) . وكان

(١) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥١ .

(٢) أنظر مقال للاستاذ حسن عبد الوهاب عن « قلعة قايتباي : أثر إسلامي
عظيم وسط البحر » جريدة الأهرام في ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٩ ، رسالة الماجستير المقدمة
من الزميل الأستاذ محمد توفيق بليغ عن قلعة قايتباي بالاسكندرية . (مكتبة كلية
الآداب جامعة الاسكندرية) ، ومقال للاستاذ كومب عن :

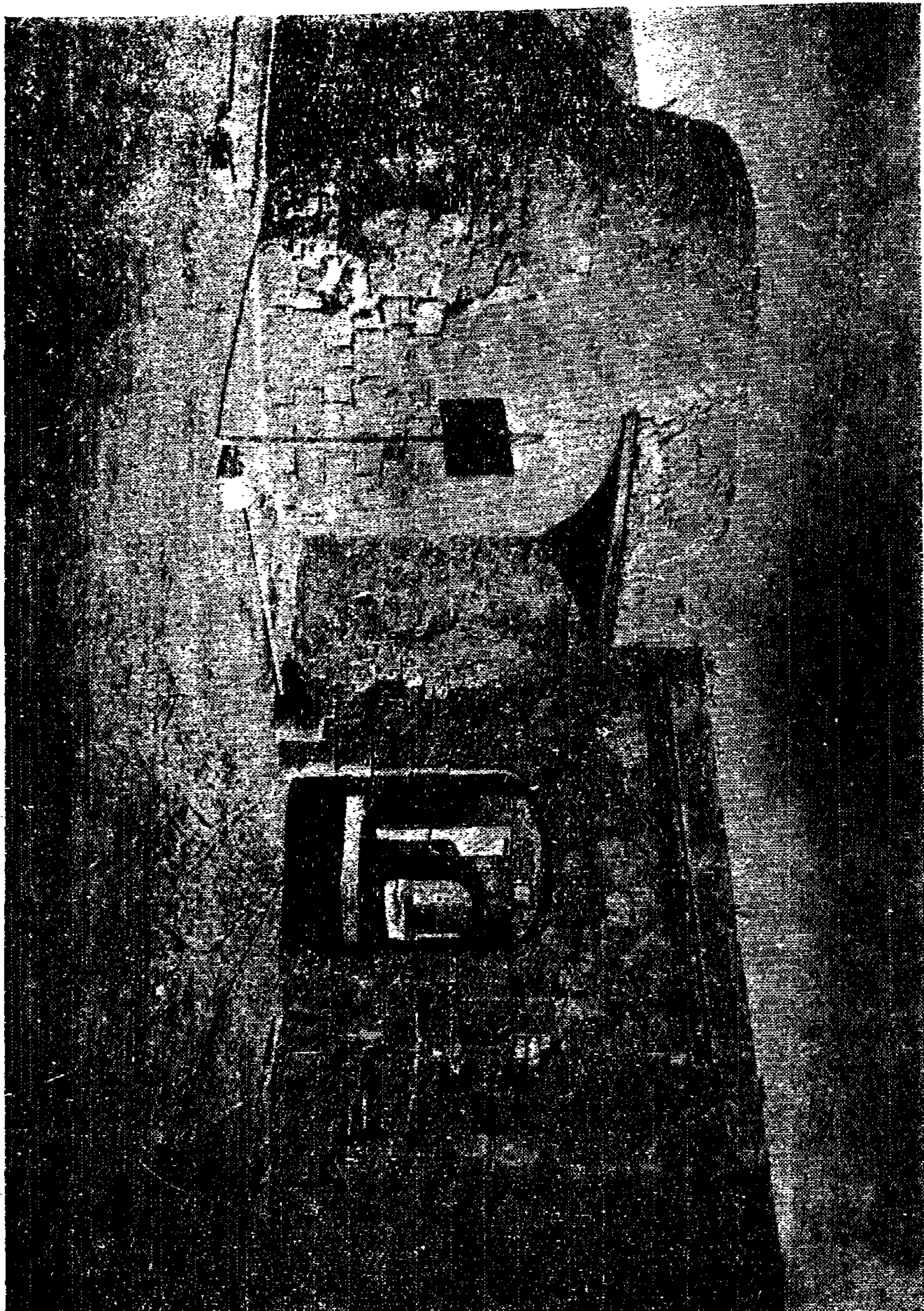
Notes sur les Forts d'Alexandrie et de ses environs: dans Bulletin de la
Société Royale d'Archeologie d'Alex. No. 34, 1940

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤

ويقول ابن بطوطة عن مرساها : « ولها المرس العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا
مثله إلا ما كان من مرسى كولم (كيلون) وقاليقوط (كلكتا) ببلاد الهند ومرسى
الكفار بسوداق ببلاد الأتراك (في شبه جزيرة القرم) ومرسى الزيتون (تسنج
تشيوفو) ببلاد الصين » رحلة ابن بطوطة ص ١٠ .

لتشجيع دولة المماليك للتجار الأجانب على القدوم إلى الاسكندرية والاتجار في الفنادق الأفرنجية التي أعدت للجاليات الأوربية (من بنادقة وجنوين وبيزيين وفرنسيين وقطلونيين وقبارصة وتتار) أثر كبير في الازدهار التجاري الذي أصاب الاسكندرية في هذا العصر . وقد حاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوربية عقب سقوط عكا في أيدي المماليك لقطع كل علاقاتها التجارية مع مصر ، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، لأن الدول والجمهوريات الأوربية التي تتعامل مع مصر لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق ، التي تأتي عن طريق واحد هو طريق دولة المماليك، وظلت الدول الأوربية تعمل على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل ، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة وأبعدها أثرا . وتشهد تقارير قناصل أوربا في الاسكندرية على كثرة التجار الأجانب في الاسكندرية وكثرة فنادقهم في هذه المدينة . وأخذت السفارات الأوربية إلى سلاطين مصر تزداد عددا ، فكانت هناك سفارات بعضها ملك أرغون وملك قشتالة وملك فرنسا وجمهوريات جنوة والبندقية وإمبراطور بيزنطة وملك البلغار ووادي الفولجا والبلاط العثماني والبلاط الإيراني . وكان تجار قطالونية وجنوة والبندقية يجلبون إلى مصر ما كانت تحتاج إليه من الرقيق ومن الخشب ومن المنسوجات والفراء ، بينما كانوا يستوردون من مصر بهار الهند وخزف الصين وآلآء الخليج الفارسي (١) . وكانت الاسكندرية على هذا

(١) فييت : المواصلات في مصر ص ٣٨ - ٣٩ . أقام سلاطين المماليك علاقات من المودة مع ملوك أسبانيا المسيحية : فقد عقد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون معاهدة من الصداقة والسلام مع جايي الثاني ملك أرغون في ١٩ صفر سنة ٦٩٢ هـ (٢٨ يناير سنة ١٢٩٢ م) كما أرسل ملك قشتالة سفارة إلى الناصر محمد ، ورد عليها الناصر بسفارة أخرى في ٥ رجب سنة ٦٩٩ هـ (٢٨ مارس سنة ١٣٠٠ م) أنظر Maximiliano Alarcon y Santon y Ramon Garcia de Linares: Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid 1940, pp. 335-346 Hyd: Histoire du Commerce du Levant, t. 2, p. 125.



(شكل ٢٧) قلعة قاتنبای : أحد الأبراج الخارجية

النحو أهم مركز في مصر لتصدير البهار إلى أوروبا، وعلى هذه التجارة اعتمد سلاطين المماليك في تنمية موارد الدولة (١). وزاد من هذه الموارد إحتكار سلاطين المماليك التجارة في بعض الحاصلات مثل السكر والتوابل والأخشاب والمصنوعات المعدنية (٢)، وبلغت هذه الاحتكارات ذروتها أيام الأشرف برسبای الذي أصدر في عام ١٤٢٨ م مرسوما حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان، وفرض السلطان رسوما باهظة على الواردات والصادرات، فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعا كبيرا مثل التوابل والحرير والسمك. وكانت هذه الاحتكارات مثارا لسخط التجار الأجانب واستصراخهم للسلطان فقد شكوا التجار المغاربة لفرج بن برقوق من جور القباض (٣). كما احتج البنادقة على الأشرف برسبای سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) عن طريق ممثلهم في الاسكندرية، ولما لم يجبه السلطان إلى مطالبهم قطعوا علاقاتهم بمصر وأرسلوا أسطولهم إلى الإسكندرية لإعادة التجار البنادقة إلى بلادهم. ولما شاهد برسبای ذلك عاد إلى صوابه ومنحهم شروطا أفضل فيما عدا احتكاره للفلل (٤). كذلك احتج القطلانيون على موقف برسبای منهم، ورفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان، ولكنه لم يجبه إلى مطالبهم لأنه لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم (٥). أما أرغونة وقشتالة فقد

(١) فييت : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجركسة ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) أنظر شكوى التجار المغاربة للسلطان فرج بن برقوق من قسوة الضرائب عند زيارته للاسكندرية وجور القباض وما أمر به السلطان من إبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس الحديثة (ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ ، ج ٤ ص ٤٢٦) .

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in the middle ages, London, 1936, (٤)

p. 340.

(٥) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجركسة ص ٢٨٩ . كانت التجارة في البحر الأبيض المتوسط لا تخلو من الأخطار التي تنشأ غالبا من قراصنة قطلونية وصقلية وجنوة (أنظر فييت : المواصلات في مصر الاسلامية ص ٣٩) .

احتجتا بشدة وعمدتا إلى رفع أثمان السلع الأوربية التي ترد إلى مصر ، ولم تكتفيا بذلك بل هاجمت سفنها السفن المصرية على سواحل الشام وأسرت بعضها . وأخيرا عقد برسباي مع ممثليها الصلح في ٧ رمضان سنة ٨٣٣ هـ (٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ م) (١) .

ثم أخذ مركز الاسكندرية كثغر تجارى يتضاءل تدريجيا بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، ولم تلبث المدينة أن هجرها التجار من سائر الأقطار فاضمحلت وسادها الخراب حتى دخلها العثمانيون ، فانتكست نكسة طويلة لم تفق منها إلا منذ عهد قصير .

ب - الزراعة :

كانت الاسكندرية إلى جانب شهرتها التجارية العظيمة مدينة تحيط بها المزارع والحقول ، وكانت أرضها تنبت الكروم والزيتون والتين والاوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين (٣) وقد شاهد ابن جبير عند رحيله من الاسكندرية إلى دمنهور بسبطا من الأرض " كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة " (٤) .

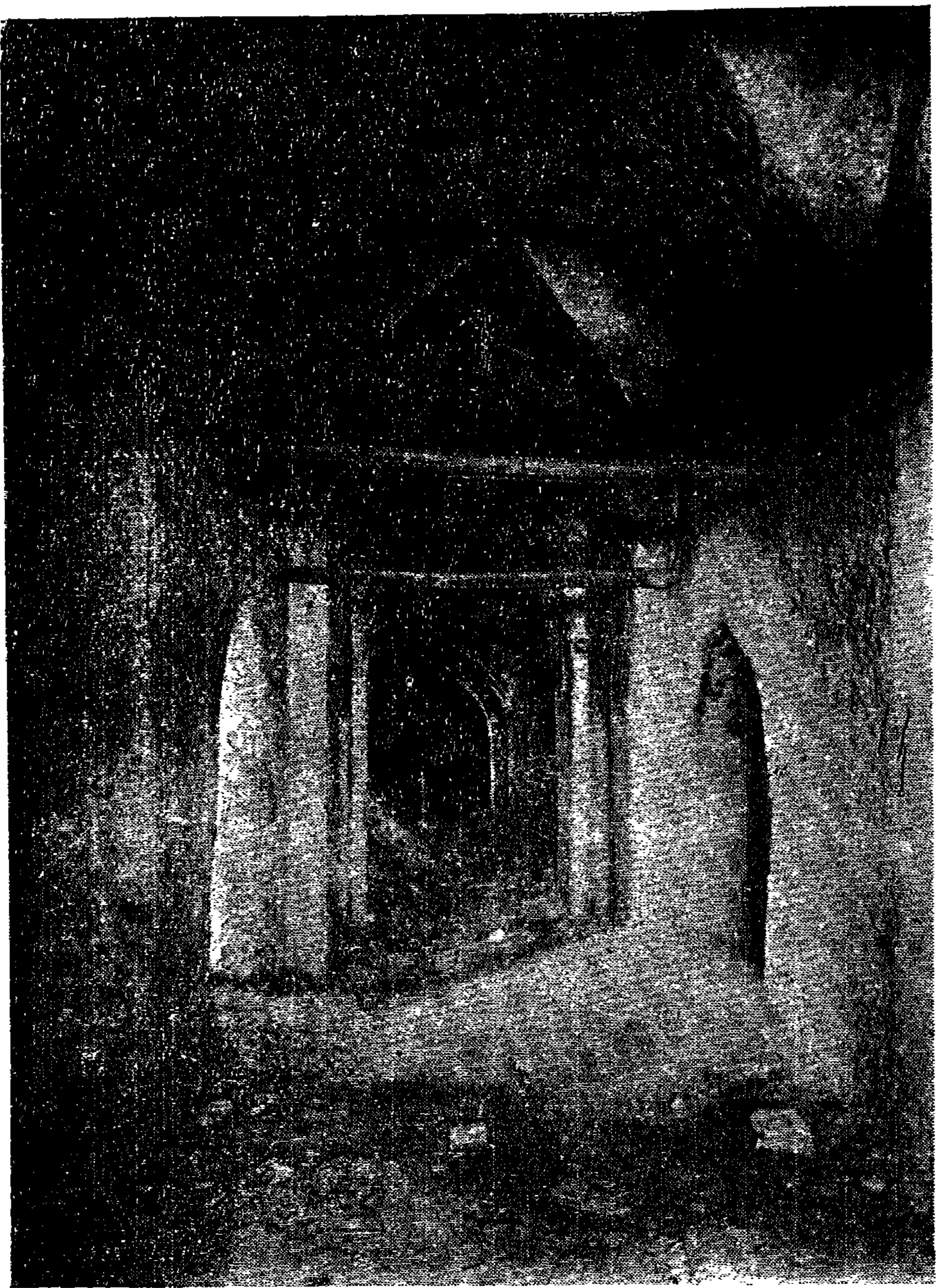
ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون خليج الاسكندرية ، استغنى أهل الاسكندرية عن الصهاريج وقام الناس بالزراعة على طول الطريق إلى الإسكندرية ويذكر

(١) أنظر الملحق في آخر الكتاب .

(٢) محمد عبد الهادي شعيرة . الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ص ٩٠ . يصف ابن رسته الطريق النهري إلى الاسكندرية " من الفسطاط فيقول « تخرج منها في سفينة منحدرًا فتسبح مقدار ثلاثين فرسخًا عن يمينك ويسارك النخيل والبساتين والضياع حتى تنتهى إلى سور الاسكندرية » (أنظر كتاب الأعلام النفيسة ص ١١٨) .

وفي موضع آخر يقول : « . . . فتدخل من باب الشرق من الاسكندرية فهناك قبة خضراء عليها ستة عشر عمودًا من رخام وهى وسط المدينة بناها الاسكندر ، يمتد من هذه القبة البحر ، ويسرة منها أشجار الجميز والكروم » نفس المرجع .

(٣) ابن جبير ص ٤٤ .



(شکل ۲۸) قلعة قایتبای : داخل سور القلعة

المقریزی أنه استجد من الأراضي ما يربو على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباحا ، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم وفوق الأربعين ضبعة وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية (١) . غير أن هذه التربة لم تلبث أن سدت وطمرتها الرمال فتلف الجزء الأكبر من الحقول والبساتين المحيطة بالاسكندرية وتلاشت القرى . ولما أعاد برسباى حفر الخليج (ترعة الأشرفية) لم تعد البساتين كما كانت من قبل إذ أخذت الاسكندرية تسير سيراً حثيثاً نحو الاضمحلال .

ج - الصناعة :

اشتهرت الاسكندرية في العصر الاسلامي في ميدان الصناعات ، وأهم هذه الصناعات : صناعة النسيج ، وصناعة الخزف ، والعاج والزجاج وصناعة السفن .

١ - صناعة النسيج :

ظلت الاسكندرية تحفظ بعد الفتح الاسلامي بمركزها القديم في صناعة المنسوجات ، فلم تتأثر بهذا التغير السياسي والديني ، لأن العرب لم يقوموا بأي تغيير جوهري في صناعة النسيج ، وقنعوا بادخال الكتابة العربية في منتجاتهم (٢) . وقامت دور الطراز بانتاج كسوة الكعبة والخيام والأعلام والخلع التي كان يخلعها الولاة على من شاءوا من الناس ، لتشريفهم . كذلك اشتهرت الاسكندرية بانتاج أنواع جديدة من المنسوجات مثل الوشي والسقلاطون والشرب والمنمر والمفرج السكندري (نوع من الطرح المذهبة) والشاش الحرير السكندري المموج بالذهب والطرود وحش (٣) والبشاشين .

(١) المقریزی : الخطط ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) M. A. Marzouk: Alex. as a textile centre, p. 126.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٢ ، ٥٣ . يذكر السيوطي أن =

ويذكر القلقشندي أن دار الطراز بالاسكندرية كانت تختص بانتاج الثياب السلطانية الحريرية المرقومة بلون مخالف للون القماش أو الطرز (١) .

ولما زار الأشرف شعبان دار الطراز بالاسكندرية "جعل يطوف على الأنوال ويبصرها ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ويتفرج على الصناعات كيف ينسجون وإلى مكائهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد في أعلا الأنوال الشياطين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المتشادي ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر وغيره " (٢) . ويحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة بعدد من قطع النسيج التي تحمل كتابة كوفية تشير صراحة إلى أنها من إنتاج دار الطراز بالاسكندرية . وكانت الاسكندرية تصدر منسوجاتها إلى أوروبا وكان قماش الاسكندرية مما يهادى - به سلاطين مصر للملوك إسبانيا (٣) .

ويشير النائب الاسكندري خليل بن شاهين الظاهري إلى ازدهار صناعة النسيج في عصره بقوله " ويعمل بهذا الثغر من الأقمشة العجيبة التي لا توجد في غيره " (٤) .

= بالاسكندرية يعمل الوشي الذي يقوم مقام وشي الكوفة (ج ٢ ص ١٧٣) والبشايين نوع من المخمل (ابن إياس ج ٤ ص ٣٣٤ - ابن شاهين الظاهري ص ٤٠) .

(١) القلقشندي : نفس المرجع ج ٤ ص ٧ .

(٢) النويري : الامام بالأعلام ق ١٤٢ ذكرها الدكتور مرزوق في بحثه عن الاسكندرية ص ١٣١ .

(٣) أنظر الوثائق العربية بكتاب Los Documentos Arabes, No. 146, 149 من هذه الهدايا نوع اسمه القشي والقطف وكنجي ومفرج مطرز ، وشواشي حرير أحمر (٤) ابن شاهين الظاهري : المرجع السابق ص ٤١ .



(شكل ٢٩) منظر قديم لقلعة قايتباي وترى بأعلاها مئذنة مسجدها الجامع

٢ - صناعة الخزف :

عرفت الاسكندرية قبل الاسلام صناعة الخزف ، وكانت تؤلف مركزا هاما لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كالكؤوس ذات الرسوم البارزة . وكانت تغطي كلها باللون الأخضر ، أما جزؤها الداخلى فكان لونه يميل إلى الأصفر (١). ولا شك أن هذه الشهرة استمرت بعد الإسلام وعلى الأخص في العصرين الفاطمي والمملوكي ، فلقد أسفرت الحفائر الأثرية التي قامت بها كلية الآداب في كوم الدكة سنة ١٩٤٨ عن كشف قطع هائلة من الخزف الفاطمي والخزف الشائع في عصر المماليك ، كما كشف عن بقايا النباتات البحرية ومخلفات الحريق وكتل زجاجية تشير كلها إلى أنه كان يقوم في هذه البقعة مصنع للخزف ، هذا إلى جانب قطع كثيرة من خزف أجنبي (صيني وأندلسي وإيراني وسوري) (٢) مما يدل قطعاً على أن الصناع الاسكندرانيين كانوا يقومون بتقليد هذه المنتجات المستوردة في صناعتهم المحلية . وأغلب ما عثر عليه قطع من النوع المعروف بالخرافياتو ونعني به الخزف المصنوع من طينة حمراء اللون ومغطى بطبقة من طينة بيضاء تسمى البطانة ، وتتسم زخارف هذا النوع بأنها ترسم فوق البطانة ثم تزال الأجزاء المحيطة بالزخرفة حتى تبدو الطينة الحمراء ويظهر الرسم بذلك بارزاً ، ثم تزجج الأنية بعد ذلك . وتتميز القطع التي عثر عليها بحمل كتابات نسخيه منها " الأميري " و " المولوي " و " الملكي " و " المقرى " وكلها ألقاب كان يحملها المماليك ، كما عثر على قطعة تحمل توقيع أحد الصناع المشهورين في عصر المماليك وهو شرف الأبواني .

(١) Arthur Lane, Early Islamic Pottery, London, p. 9

(٢) حفائر جامعة الاسكندرية في كتاب « الاسكندرية » الذي وضعته غرفة اسكندرية التجارية ص ١١٧ .

كذلك كشفت البعثة البولندية التي تقوم بحفائرها في موضع آخر من منطقة كوم الدكة عن كميات كبيرة من الخزف ، منها النوع الفاطمي المعروف ببريقه الذهبي ، ومنها النوع الأيوبي الذي تشجع منه الزخارف ومنها النوع المملوكي المعروف بالخرافياتو . كذلك عثرت البعثة المذكورة على قطع من الخزف الأندلسي والإيراني مما يدل على أنه كان يرد إلى الاسكندرية بعض الأواني الخزفية من الشرق والغرب . ولقد كان الخزف الأندلسي من الأنواع الممتازة التي كان يقتنيها الناس ، وليس أدل على ذلك مما قدمه سفير السلطان الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن نصر ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق من هدايا من الخزف والثياب . ويذكر السفير الأندلسي أنه قدم إلى السلطان المصري " شيئا مما اصطجنه من متاع الأندلس كالقفاخر المالتى والنجبار الغرناطى وشيء من ثياب الخز المنسوجة بها " (١) :

٣- صناعة الزجاج :

كانت الاسكندرية معروفة منذ عصورها القديمة بصناعة التحف المصنوعة من الزجاج ، وظلت هذا الصناعة مزدهرة في العصر الاسلامي فكانت تصنع من الزجاج الأواني والقارورات والأختام (٢) . وكانت الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الزجاج في مصر في العصر الفاطمي (٣) ويذكر المقرئى إسم مدينة الاسكندرية بين المدن التي اشتهرت بصناعة الزجاج (٤) . وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات

(١) عبد العزيز الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٤ ص ١٠٥ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج ١ ص ١١٧ القاهرة ١٩٣٥ .

(٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٥٨٦ القاهرة ١٩٤٨ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٤٢ .

من القطع الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزين بزخارف مذهبة ومموهة بالمينا من النوع الشائع في المشكاوات .

ثالثا - الحالة العلمية :

كانت الاسكندرية عند مافتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية (١)، غير أن مدرسة الاسكندرية لم تلبث أن اضمحلت بعد الفتح العربى لانصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية وإقبالهم على الثقافات العربية بعد أن نزلها عدد كبير من العرب اليمنية الشامية ، ومع ذلك فقد ظلت الاسكندرية تحتل مركزها الثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها . ونبغ من رجالها كثيرون فى الطب والكيمياء والفلسفة . وعلى يد علمائها تعلم خالد بن يزيد علم الكيمياء بعد أن أمرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية (٢) . ونبغ فى الطب طيب نصرانى اسمه بليطان السكندرى (توفى سنة ١٨٦ هـ) وسعيد ابن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون ، وسعيد بن البطريق المتوفى فى رجب سنة ٣٢٨ هـ . أما العلوم الدينية مثل الفقه والحديث فقد اقتصت بها الفسطاط ، أما الاسكندرية فلم تزدهر فيها هذه العلوم إزدهارها فى الفسطاط حتى أواخر أيام الدولة الفاطمية ، فظهرت بالاسكندرية مدرستان سنيتان للحديث الثقافة الاسلامية كان لهما الفضل الأعظم فى النهضة العلمية التى أصابت الاسكندرية فى ذلك العصر . الأولى المدرسة العوفية التى أنشأها الوزير رضوان بن الولحشى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) للفقهاء أبى الطاهر إسماعيل مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندرانى تلميذ أبى بكر الطرطوشى (توفى ابن عوف فى شعبان سنة ٥٨١ هـ) (٣) والثانية المدرسة السلفية التى أنشأها العادل بن السلار وزير الظافر سنة

(١) نبغ فيها أفلوطين الفيلسوف .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٨٩ .

(٣) السيوطى ج ١ ص ١٩٢ ، حسن عبد الوهاب : الاسكندرية فى العصر

الاسلامى ص ٣٨٢ .

٥٤٦ هـ (١١٥١ م) للحافظ أبي طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني أوجد زمانه في عالم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية (١) .

وهكذا تألفت في الاسكندرية مدرسة للحديث والفقه وأصبحت مركز الرحلة ومقصد العلماء . ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أنه استوطنها في العصر الفاطمي جلة من العلماء كان لهم أثر كبير في نهضة العلمية منهم العلامة ابن أبي مطر وابنه ، وعليها سمع خلف بن محمد الخولاني المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وعبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، وابن عباد الاسكندراني الشاعر ومحمد بن الحمشي الاسكندراني ، وابن الحداد ، وابن الفحام المقرئ وابن الخطاب محمد بن إبراهيم الرازي ثم المصري ، والامام الطرطوشي ، والحافظ المقدس (٢) .

وتألفت الحياة العلمية بالاسكندرية في عصر صلاح الدين ، فاقد ذاع صيت السلفي وابن عوف ، وتوافد إليهما العلماء من أنحاء العالم الاسلامي لسماع عنهما فن تلاميذ السلفي الحازمي محمد بن موسى الهمداني وابن الحلجلى والصفي بن شكر الوزير ، ومحمد بن خلف المقدس ، والشاعر ابن قلاقس السكندري ، والعلامة الحميزي ، والحافظ علي بن مفضل اللخمي القدسي الاسكندراني والفقيه عيسى الهكاري (٣) . ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب

(١) السيوطي ج ١ ص ١٤٩ ، حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٨٣ ، محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الاسكندرية ١٩٥٩ ص ١٧٩ - ١٨٣ .

(٢) حسن عبد الوهاب ، نفس المرجع ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٣) محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين ص ١٨٦ .

عددا كبيرا من تلاميذ السلفي وزملائه، فمن الشعراء والأدباء أبو الفتح بدر بن نمير بن يونان الأنطاكي المعروف بنصر ، وأبو محمد بن الحسن بن عشير العبدري النحوي ، وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن خلف الخولاني الكتبي ، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي الكتبي المعروف بابن الحيزي ، وأبو محمد عبد العزيز إسماعيل بن بربك بن توهيب ، وتقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري . . . إلى آخره (١) .

ولقد عمل صلاح الدين على تشجيع هذه الحركة العلمية بالثغر فأسس مدرسة وبمارستانا وداراً للمغاربة في الاسكندرية ، وفتحت هذه المدرسة أبوابها لعلماء المغرب والأندلس. والواقع أن التأثير المغربي الأندلسي واضح كل الوضوح في الاسكندرية ، فلقد نزلها أئمة العلماء في الحديث والفقه في الأندلس نخص بالذكر منهم أبو العباس القرطبي صاحب المفهم في شرح صحيح مسلم (توفي سنة ٦٥٦ هـ) ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي المقرئ الزاهد (توفي سنة ٦٧٢ هـ) ، وأبو بكر محمد بن علي الجياني وأبو العباس أحمد بن عمر المرسى ، وأبو الحسن علي بن محمد الخزرجي المعروف بابن عفيف ، وأبو علي منصور بن لب الانصاري (٢). وفي أواخر القرن السادس الهجري وبداية السابع ، ازدهرت الحياة الأدبية بالثغر ، ووجد عدد كبير من الشعراء والكتاب ذكر علي بن ظافر بعض أسمائهم (٣). وقد أحصى الأستاذ حسن عبد الوهاب تراجم لعلماء وأدباء اسكندريين أو توطنوا بالاسكندرية ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس الهجري حتى نهاية الثامن ، فوجد أنها بلغت نحو ٢٥٠ ترجمة (٤) ، وذكر أسماء بعضهم فمنهم : عبد الكريم بن عطاء الله أبو محمد الاسكندري (توفي سنة ٦١٢ هـ) ، ويحيى

(١) حسن عبد الوهاب : نفس المرجع ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، محمد زغلول سلام ، نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٢) راجع المقرئ : نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب ج ٢ ، ٣ .

(٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٨٨ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .

بن الصواف الاسكندري (توفي سنة ٧٠٥ هـ) ومحمد بن قاسم النويري مؤلف كتاب الإمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الاسكندرية ، وزهت الحياة الأدبية والعلمية في عصر المماليك بإنشاء المدارس ودور الحديث ، ولم يكده ينتهي القرن الثامن الهجري حتى بدأت هذه الحركة في الحمود والركود . وما لبث الفتح التركي أن قضى عليها تماما ، وقبض الله لها أخيرا من يبعثها من جديد في عصرنا الحاضر .

ملاحق الكتاب

ملاحق الكتاب

١ - نيابة الاسكندرية

(نقلا عن صبح الأعشى في صناعة الانشا ج ٤ ص ٦٣)

” وهى نيابة جليلة ، نائبا من الأمراء المقدمين ، يضاهى فى الرتبة نيابة طرابلس وما فى معناها أو يقاربها ، وبها حاجب أمير عشرة ، وحاجب جندي ، ووال للمدينة ، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر ، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضى قضاة مالكى ، وقاض حنفى مستحدث ، وربما كان بها قاض شافعى ، والمالكى أكبر الكل بها ، وهو المتحدث فى أموال الأيتام والأوقاف . على أنه ربما ولى قضاء قضائها فى الزمن الماضى شافعى ، وبها موقع يعبر عنه فى البلد بكتاب السر ، وناظر متحدث فى الأموال الديوانية ، ومعه مستوف وتحت يده كتاب وشهود ، وبها محتسب ، وليس بها قضاة عسكر ولا مفتو دار عدل ، ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتركز بها أمراء المقدمين والطبلخانات فى غير الزمن الذى يتمتع سير المراكب الحربية فى البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى الحاجب وهذه النيابة مع جلالة قدرها ورفعة محلها ليس لها عمل يحكم فيه نائبا ولا قاضيا ومحتسبا ، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها لا يتعدى ذلك ، بخلاف غيرها من سائر نيابات المملكة ، وبها كرسي سلطنة بدار النيابة ، وعادة الخدمة السلطانية بها فى أيام المراكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة ، وفى خدمته مماليكه وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم ، ويخرج من دار النيابة عند طالع الشمس ، ويسير فى موكب

والشبابة السلطانية بين يديه حتى يخرج من باب البحر ، ويخرج الأمراء المركزون على حديثهم أيضا ، ويجمعون في الموكب ويسرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون ، ويتوجه النائب إلى دار النيابة في مماليكه وأجناد المائتين ، وقد فارقه الأمراء المركزون وتوجه كل منهم إلى منزله . فاذا صار إلى دار النيابة : فإن كان في ذلك الموكب سباط ، وضع الكرسي في صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ومد السباط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناد المائتين وجلس النائب بجنبه من الإيوان والشباك مظل على مينا البلد ، ويجلس القاضي المالكي عن يمينه ، والقاضي الحنفي عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه ، ورعوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع القصص فيقروها الموقع على النائب ، فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب .

قلت : وهذه النيابة مستحدثة ، وكان ابتداء ترتيبها في سنة سبع وستين وسبعائة في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج وفتكوا بأهلها وقتلوا ونهبوا وأسروا ، وكانت قبل ذلك ولاية تعد في جملة الولايات الطبلخانة ، وكان لوالها الرتبة الحليلة والمكانة العلية .“

ب - زيارة السلطان الأشرف قايتباي الأولى لاسكندرية

في ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ

(من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٣ ص ١٢٦ - ١٢٨)

” . . . وفي ربيع الأول سنة ٨٨٢ نزل من القلعة في يوم السبت رابع عشرة ، وعدى إلى بر الخيزة ولم يشعر به أحد من الناس وقصد التوجه إلى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر وجهاز سنيحة من البحر في مراكب ، وسافر صحبته من الأمراء الأتابكي أزيلك أمير كبير ، ويشبك الدوادر ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وازدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجسم الخفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ، وسافر معه سائر المباشرين . . . فلما وصل السلطان مدينة الاسكندرية زينت له زينة حافلة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش ، وكذلك قجاس الاسماقي نايب ثغر الاسكندرية ، واصطفى الناس في شوارع المدينة بسبب الفرجة ، فدخل السلطان في موكب حافل وجميع من معه من العسكر ملبسين آلة السلاح بالعدد الكاملة والأتابكي أزيلك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء وقدامه أعيان المباشرين وأرباب الدولة ، وطلب طلبا حافلا وجرفيه مائتان وخمسون فرسا ، منها خمسون فرسا بالسروج الذهب والكنائش ، والبقية ملبسة بأنواع البر كستوانات والجواغين المكففة بالذهب والفضة والبقية من المحمل الملون وفي الطلب كجاورتين زركش وهي التي تعرف الآن بالحوش ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب والأوزان عماله والشبابة السلطانية ، ومشى قدامه الأمراء الرؤس النوب بالعصى ، فشق المدينة في ذلك الموكب الحافل وكان له يوم مشهود . ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما شق من مدينة الاسكندرية

سقط الطائر الذهب من على القبة فنزل الأمير يشبك الدوادار عن فرسه
وثبت الطائر على القبة . ثم ركب على فرسه ، ومشى . ثم أن بعض تجار
الفرنج نثر على رأسه لما شق المدينة ألف بندق ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك
يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر
الفرس من شدة ازدحام الناس عليه حتى أدركه الأمير تمرار رأس نوبة
النوب وفي يده عصاة فضرب بها الناس حتى خلص السلطان ، ومشى .
واستمر في ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذي هناك فنزل بالخيم
الذي نصب له على ساحل البحر الملح . وكان العادة القديمة أن السلطان إذا
دخل مدينة الاسكندرية تفك أبواب المدينة وتلقى على الأرض إلى حين
يرحل السلطان على المدينة . فلم يوافق السلطان قايتباي على فك أبواب
المدينة وأبقى كل شيء على حاله . وهذا من عهد الأشرف شعبان بن حسين
بن محمد بن قلاوون لم يدخل الإسكندرية سلطانا . وقد دخلها مرتين :
المرّة الأولى في سنة سبع وستين وسبعمائة لما طرق الفرنج ثغر الاسكندرية ،
فدخلها على جرائد الخيل . وأما في المرّة الثانية فكان سنة إحدى وسبعين
وسبعمائة ، فأوكب بها في هذه المرّة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش
له نخليل بن عرام نايب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفاف
الذهب والفضة ، ومشى بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان
دخوله من باب رشيد ، فانه كان في تروجة وتوجه من هناك إلى الإسكندرية ،
فأقام بها ثلاثة أيام وعاد إلى القلعة . ثم توجه بعده للإسكندرية الملك الناصر
فرج بن الظاهر برقوق في سنة أربعة عشر وثمان مائة ، فلما دخلها كان له
بها يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم
القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث إلى العشر ، فارتفعت
له الأصوات بالدعاء ، وعد ذلك من محاسن الناصر فرج (١) . انتهى ذلك .
ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف قايتباي . فلما نزل بالخيم مد له هناك

(١) كرر ابن إياس وصفه لزيارة الناصر فرج بن الظاهر برقوق لشهر

قجاس نايب الإسكندرية مدة حافلة ، ثم أنخلع على الملك المؤيد ونايب الاسكندرية ، ورجعا إلى دورهما وصحبتهما الأمراء قاطبة فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب بالكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه ، ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافله ، ثم أنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بشجر الإسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا فبنى به برجا معظما ، وهو الموجود الآن كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ثم إن السلطان رحل عن الاسكندرية وتوجه إلى نحو إدكو ودمنهور“

ج - زيارة السلطان قايتباي الثانية لاسكندرية

في جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ

(من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الثالث ص ١٥٠ ، ١٥١)

” . . . وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان إلى ثغر الاسكندرية وهي السفرة الثانية ، فتوجه من البحر في عدة مراكب كثيرة ، وكان سبب توجه السلطان من البحر لعدم الطريق من كثرة ماء النيل على اقتراش الأراضي ، وكان معه من الأمراء الأتابكي أذربك ، ويشبك الدوادار ، وخايربك من حديد ، والأمير أذربك اليوسفي الخازندار ، أحد الأمراء المقدمين ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجم الغفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية ، وكان معه من المباشرين القاضي كاتب السر ابن مزهر وغيره من أعيان المباشرين ، وكان معه الشهابي أحمد بن العيني ، وسيدى منصور بن الظاهر نخشقدم ، وغير ذلك من الأعيان . . . وكان سبب سفر السلطان إلى الإسكندرية في هذه المرة لأجل البرج الذي أنشأه هناك ، وقد انتهى العمل منه ، فتوجه إليه ليرى هيئته ، فلما دخل مدينة الإسكندرية لم يوكب بها مثل أول مرة ، ولا حملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالخميم ، مد نائب الاسكندرية ملة حافلة ، ثم توجه إلى رشيد ، وكشف على البرج الذي أنشأه بها ثم كشف عن البرج الذي أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة :

وقيل في صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر في البحر الملح من الساحل حتى ينتهي إلى البرج ، وقد بنى على أساس المنار القديم الذي كان بالاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ، ينظر منه

من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهي داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج
جامعاً بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا ، وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ،
وجعل حول هذا البرج مكاحلا معمرة بالمندافع ليلا ونهارا بسبب أن لا
تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين
به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في كل شهر ، وجعل عليهم
شادا من خواصه يقال له قانصوه الحمدي ، وهو الذي ولي نيابة الشام فيما
بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجي ، وقيل إن السلطان أصرف على بناء
هذا البرج زيادة على المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الحليلة ،
وجاء من أحسن الآثار والمعروف ، ثم أن السلطان أقام بشجر الاسكندرية
أياما ورحل عنها .

١ - زيارة السلطان قانصوه الغورى الاولى لاسكندرية

فى ذى القعدة سنة ٩٢٠ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الرابع ص ٤٢٣ - ٤٢٥)

” . . . وأما ما كان من ما يخص أخباره عند توجهه إلى ثغر الاسكندرية فانه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكىة فى بولاق ، فتغدى هناك ، ثم عدى إلى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية فأقام به خمسة أيام ، قيل إنه كان منتظرا لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند . فلما ورد عليه كتب العقبة ، اطمأن ، ورجل من المينة وقد قاسى العسكر فى التعدية مالا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر ، ثم إن السلطان توجه من المنية إلى المنصورية ، وأقام بها يوم وليلة ، ثم توجه من هناك إلى البحيرة ، فأقام بها يوم وليلة واستمر يـ حل من مكان إلى مكان إلى أن نزل بالنجيلة فأقام بها يومان وليلتان ، وأحضروا له الصيادون هناك تساح ، فأمر بتوسطه بين يديه ، فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به إلى يوم الأحد ، ثم أوكب من هناك ، ودخل إلى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشرة ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك . ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفته بل لبس تخفيفة صغيرة مدوره وعليه كامليه مخمل أحمر بصمور وحمل الأتابكى سودون العجمى القبة والجلالة (١) على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب

(١) الجلالة هى هلال كان يتوج قبة السلطان وجعل مكان الطير .

عوضا عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من المدينة فى موكب حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة . فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب ، ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكى سودون بالحلالة التى على القبة بعض السقائف التى هناك ، فانكسرت تلك الحلالة نصفين وسقطت على الأرض ، وكذلك لما مرت الحفة من هناك انكسرت الرصافية التى كانت عليها ، ثم إن السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس باخيم الشريف ، فأرسل إليه مملوكه نخدا بردى نائب الاسكندرية مقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير ذلك ثم قدم إليه الخواجا ابن أبو بكر تاجر السلطان مقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح . وكانت الاسكندرية من أجمل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الملون وفى كل دار منها حمام تختص بها ، وكان بها اثني عشرة ألف بقال يبيعون البقولات من بعد العصر إلى العشاء ، وكان بها أربعين ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف إنسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار الذى هى بها الآن . ثم إن السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملة الخمل الأحمر التى كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر .

وفى ذلك اليوم ثارت ممالك السلطان الخاصكية على خدأ بردى نائب الاسكندرية وقالوا له أنفق عاينا لكل مملوك عشرين أشرفى ، كما فعل قجاس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى إلى الإسكندرية ، فلم يعطيهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به ، وما سلم من القتل إلا بعد جهد كبير . ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام . فلما بات بالخمى تلك الليلة وقدوا له موادن (١) المدينة وعلقوا على شراريف الصور (٢) كل واحدة قنديل . فلما أصبح السلطان ركب وضرب (٣) الكرة على ساحل البحر الملح هـ والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذى هناك ثم توجه إلى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى ، فطلع فى البرج هو والأمراء ، وأرموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الابراج الذى بثغر الإسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بإمرة الطبليخاناه . ثم فى ليلة الأربعين سابع عشرة أحرق السلطان فى الوطاق احراقه نפט حافلة على شاطئ البحر الملح . ثم فى يوم الأربعاء سابع عشرة رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية فكان مدة إقامته بها يومان وليلتان .

(١) جمع مئذنة .

(٢) يقصد شرفات السور التى بأعلاه .

(٣) كانت العادة تجرى وقتئذ على أن يخرج السلطان فى موكب لعب الكرة

ويخرج معه الجوكندار أى حامل عصا الكرة .

٥ - رحلة سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر بمصر

سنة ٨٤٤ هـ . (١)

(نص نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة: المجلد السادس عشر، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤، ص ٩٨-١٠٥)

”... ورودس هذه ، جزيرة كبيرة تقابل بر التركية ، وهي منه على نحو ستة عشر ميلا ، وبها مدينة كبيرة على ساحلها ، وهي موضع رباط للنصارى يتناوبون سكناها ، ويأتون إليها من أقاصى بلادهم . ولها ببلاد النصارى على ما حدثنى من أصدقه أوقاف كثيرة يجتمع من فائدها فى كل عام مائة ألف ونيّف وأربعون ألفا من الذهب ، فهى بذلك كثيرة اللخائر والعدة وهى فى هذا العهد شديدة الإذاية على المسلمين . وذلك أن نحو ستة عشر جفنا غزوانيا كلها معدة للقرصنة ، لا يفترون عن الإغارة فى غالب أمرهم شتاء ولا صيفا . وجميع قراصين النصارى - دمرهم الله - ممن يوالها بتلك الجزور والبلاد إنما تزودهم ، وجهاز أمرهم منها . وبها يبيعون أسراهم وما يجلبون من أموال المسلمين من بر الشام وغيره . وكان فيها إذكنا بها أزيد من مائتى أسير من المسلمين رمنا أن نفدى منهم شيئا فلم نقدر ، لأن صاحب البلد لما سمع بذلك أمر بمنع الأسارى من

(١) هذا وصف لما شاهده سفير مملكة غرناطة فى طريقه بحرا إلى الاسكندرية ، سجله السفير بقلمه: والمؤلف يصف جزيرة رودس ويذكر الواقعة البحرية التى حدثت بين الأسطول المصرى والأسطول رودس . ثم يصف لنا إقامته بالاسكندرية فى ضيافة نائبها اسبغا الطيارى ويصف إنتقاله منها إلى القاهرة برا إلى رشيد وعن طريق النهر من رشيد إلى ثغر بولاق . ونختتم هذا النص بوصف السفير لقايلته للسلطان وذكر ما قدمه إليه من هدايا اندلسية .

الطلوع إلينا لما كان في غرضه من أن يقدمهم إلى صاحب القاهرة في هدية لعله يهادنه على ما بلغنا ، فانه منه في خوف شديد “ .

” وهذه المدينة من أحصن المدن وأمنعها . وعلى شرفات سورها عدة دواليب من خشب تديرها الريح وتحت كل دولا ب منها أرحى تدور بدورانه لطحنهم ، وهى على أحكم صنعة وأحسن هندام “ .

” فوصلنا مدينة الاسكندرية - حرسها الله - عشية يوم الخميس من شهر رجب المذكور والحمد لله على الوصول فى كنف السلامة . ثم فى صبيحة يوم الجمعة ثانى يوم دخولنا وجهنا من يعرف بنا والى الاسكندرية ، وكان اسمه صنيغا الطيارى أحد أمراء الترك أنجدهم الله . فوجه إلينا جملة من عتاق الخيل التى لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زى . وذلك أنهم يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب على إحكام صنعة وحسن وشى ، ويضعون مواضع الركوب منها مجالس من الديباج الملون ، ويجلون أكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق الطرف . فقدموا لنا من تلك الخيل ما ركبنا حين نزولنا من البحر ، ودخلنا فسلم على الأمير بالإسكندرية المذكورة ، وهم يدعونه بملك الأمراء ، وكذلك كل من يلى المعامل الكبار منهم . فلما دخلنا عليه مرحب بقدومنا حين سلمنا عليه ، وأمر باحضار مشروب على عادتهم يرد مع من يرد عليهم من الضيفان والقصاد ومن يكرم عندهم . فجىء بأوانى زجاج رائق ، فيها من مذاب السكر الممزوج بماء المورد مما يحى النفوس وينعش القلوب ، فشربوا وشربنا . ثم أمر بانزالنا وإجراء الضيافة عايانا ، فانصرفنا وقد حانت صلاة الجمعة . ثم فى يوم السبت أنزلنا جميع ما كان لنا بالطرائد من الحوائج والوسق ، وأراضنا الله تعالى من البحر وأهواله والحمد لله : فأقمنا تحت إيلته ثمانية

أيام في أهناً عيش وأحسن حال . وكانوا يختلفون إلينا في الغداء والعشاء بأنواع من المطاعم التي لم نعهد مثلها وبصنوف من الحلواء والمشروبات ، إلى أن تهيأ السفر إلى القاهرة حرسها الله فاكترينا جمالا حملناها لجميع ما كان عندنا من الحوائج والأثقال ، وأصبحنا الأمير المذكور أخذ بخدمته ليقوم بمؤننا في الطريق وليعرف بنا . فارتحلنا منها ضحوة يوم الخميس الثالث عشر من شهر رجب المذكور إلى رشيد ، وصلناها عصر يوم الجمعة ثاني يوم ارتحالنا ” .

و - ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الأشرف شعبان
من القاهرة إلى الإسكندرية ونصب كرسي الملك بها سنة ٧٦٩ هـ

(من كتاب الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية
في واقعة الاسكندرية ، مخطوطة رقم ١٤٤٩ بدار الكتب المصرية)

(ص ٨٩ و) . . . وفي يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة
تسع وستين وسبع مائة ورد سيف السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسن
بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون من القاهرة إلى الاسكندرية ،
فكان لدخوله الاسكندرية يوما مشهودا ، فتلقاها ملك الأمراء سيف الدين
اسنبا بن البويكري والأمراء المجردون بها ، والحجاب الثلاثة المتقدم ذكر
اسماهم وهم : صلاح الدين بن عرام ، وبهاء الدين أصلان ، وبكتمر العمري ،
ثم قضاة القضاة وهم قاضي القضاة : كمال الدين الريغي المالكي ، وقاضي القضاة
شهاب الدين الحلبي الحنفي ونوابها ، واصطففت الناس بالمحجسة العظمى
لدخول السيف السلطاني المذكور فكان خزن دار ملك الأمراء لابس الخلعة
والسيف السلطاني على عاتقه الأيمن ، قابضا على قبضته بيده اليمنى ، وملك
الأمراء يحجب السيف وقضاة القضاة الواحد عن يمينه والآخر عن
يساره ، والأمراء تحجب ملك الأمراء ، والشاويشية تصرخ ، والشبابة تزعق ،
والخلق (ص ٨٩ ظ) يمجون من كثرتهم ، وذلك بعد أن وضع كرسي
الملك بایوان دار الإمارة ، الحديد العمارة ، وهذا الإيوان المذكور ، عمره ملك
الأمراء المذكور ، وقد فرش الكرسي بفرش الحرير ، ووشح أيضا بشقاق
الحرير الملونة ، وعلق السيف السلطاني بصدر الكرسي ، وجلس ملك الأمراء

تحت الكرسي ، وجلست القضاة عن يمينه وجلست الأمراء بمجالسهم
اللايقة بهم ، وانتصب الحجاب والجند قياما على أقدامهم ، وزعقت الشابة
وصرخت الشاوشية ومد السباط فأكلت الأمراء من تلك الموائد المنصوبة
بقدر أكل الطائر ورفع السباط «

ز - زيارة الملك الأشرف شعبان الاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ

(من كتاب الإمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية
في وقعة الاسكندرية ، مخطوطة رقم ١٤٤٩ بدار الكتب المصرية)

(١٢٩ ظ) وفي يوم الجمعة الرابع من جمادى الأول سنة سبعين
وسبعمائة دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر
محمد بن الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس ، وكان دخوله
من باب رشيد في ضحى نهار اليوم المذكور ، بعد أن تقدمته البزادرة (١)
بالبزاة والصقور والشواهي والعقبان ، يقدمها باز أشهب يساوي بكرة
ذهب ، يعقبها كلاب الصيد عليها أجلة الحرير المطرزة بطرز الذهب ،
يتبعها الفهود التي أعينها كنار الوقود ، والفهود جمع فهد ويقال للفهد سبع
الأيل ، وهو فوق الغلظ من الكلب ، مزوق بسواد وبياض وحمرة ،
وذنبه كذلك . . . (١٤١ و) نعود إلى ذكر صفة دخول السلطان الملك
الأشرف شعبان ثغر الاسكندرية المحروس وذلك أنه دخله من باب رشيد ،
فسار بالمحجة العظمى ، وقد اجتمعت الرجال والنساء ، والعبيد والإماء
لرويته ، فصاروا يدعون له والنساء صرن يزرغن فرحا به ، لشبابه وحسنه
وجماله ، وهو راكب فرسا أشهباً تلوس سناكه شقق الحرير المفروشة على
الأرض ، وأمرأوه يمشون بين يديه ، والشاوشية تزرق ، والمغنين يندفونها
تضرب ، والشعراء على ضرب الرباب تشعرون ، والشبابة (٢) تشبب ، لها

(١) جمع بازدار وهو ماسك الباز وكان يشرف على طائفة البازدارية أو
البزادرة أمير يعرف باسم أمير شكار .
(٢) الدف : طبله صغيرة والرباب آلة موسيقية وترية والشبابة آلة موسيقية
تشبه الزمار .

صوت مطرب ، فطربت الأسماع على حسن الإيقاع ، وتمايلات الأبدان
كتمايل الأغصان والأفنان ، لحسن سماع تلك الألحان ، وقرت العيون
بمشاهدة جمال السلطان ، وصارت الشابة تشبب بغير خارجة لسان ، بل كل
ما نفخ فيها الإنسان أزيات الأحران كما قال بعضهم (١٤١ ظ) في
شبابه كالعناية حيث قال :

ومقطوعة موصولة شقها النوى ... تخبر أخبارا بغير تكلم
تراها إذا هاج الهوى في فواده ... تدب من الأسرار كل مكتم

وكانت الحقاوات (١) تحجب السلطان وهما مملوكان ، بيض الألوان ، راكبان
فرسان أشقران ، عليهما أقبية الحرير الأصفر بطراز الذهب وعلى رؤوسهما
كوافي الذهب المزركشة ، متساويان في سيرهما ، لا يتعدى الواحد الآخر
بعض خطوة ، والغاشية (٢) المتوجه بالطاير الذهب المشبه بالحمامة يلبس
رجل ماش يديرها بأعلى رأسه يمينا ويسارا (٣) يقدمه غاشية ثانية مرصعة
بالذهب بيد آخر ، وعلى عنق فرس السلطان رقبة من ذهب مرصعة بأنواع
الذهب والجواهر ، والسلطان عليه قباء أخضر بفرو قاقون أبيض ،
والحنايب (٤) ذوات الرقاب والكنابيش (٥) الذهب المزركشة المكلفة بأحجار
الجواهر ، تساق خلف مركوبه نحو خمسين جنديا ، وكان السلطان إذ ذاك

(١) لعلها الأوجاقية اللذان يصحبان السلطان في المراكب وكان كل منهما يركب
فرسا أشهباً برقبة من الأطلس الأصفر ويلبسان أقبية صفراء من حرير مطرز ومزركش .

(٢) هي : « سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من
الذهب » وكانت توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة (أنظر القلقشندي : صبح
الأعشى ج ٣ ص ٤٨٠ ، ج ٤ ص ٧) .

(٣) كان متولى الغاشية يعرف باسم الركاب دار .

(٤) الأفراس التي كانت رقباتها مكسوة بقماش الأطلس الأصفر المزركش
بالذهب . وكانت الرقاب توضع على أعناق الأفراس من أذنيها حتى نهاية أعرافها
(صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .
(٥) هي مواضع الركوب منها .

سنه دون الستة عشر ، ووجهه من حسنه كالقمر ، فلم يزل ساراً بالمحجة إلى مسجد أبي الأشهب فعطف عطفته ، ومر على دار ابن الحبيب إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذي يلي البلد ، فنثر عليه مقابيل دار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس ، ثم سار وخرج من باب البحر الثاني ثم الثالث ، فشهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج . وفي ذلك اليوم لم يبق بالإسكندرية إفرنجيا تاجرا ولا عابجا غلاما إلا وتحصن بالمراكب خوفا من السلطان ، ثم أن السلطان شاهد قلاع السور وأبراجه التي تلي البحر مزينة بالعدد من الأسلحة والأتراس والشطقات الحرير الملونة ، والأعلام التي تخفق بالرياح ، تبهج لرويتها الأبصار وترتاح الأرواح . ثم إن السلطان شاهد المكان الذي صعدت منه (١٤٢ و) العلوج السور والخنديق الحديد الذي أنشأه الأمير صلاح الدين بن عزام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل ذلك المكان خندقا ، بل كان الإنسان يأتي ماشيا إلى أن يلتصق بالسور . ثم شاهد السلطان أيضا الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق ، ثم أنه دخل الاسكندرية من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم العلامة أبي بكر الطرطوشي ، ثم منه إلى رحبة الجامع الغربي إلى دار السلطان المجاورة له ، وقد امتلأت الطرقات بالناس يدعون له كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأنشاهم ، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثاني ثم إلى البلد (١) ، وسار به وزيره سيف الدين الأكر المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطراز ، فترجل ودخلها

(١) هذا نص صريح يدل على أن السور الأساسي الذي يلي البلد كان به بابان ، أما السور الثاني فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من الباب الأول والثاني ويسير بين السورين .

صاعدا سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . قال بعضهم حدثني أحد مماليك السلطان الخاسكية وكان بيتي وبينه معرفة من القلعة بالقاهرة ، أن السلطان لما طلع دار الطراز قلع كلوتته (١) وأقبيته وتخفف حتى صار في ملوطه ، وتبع نوفمبره ، وجعل يطوف على الأنوال ، يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناعات كيف ينسجون ، وإلى مكائهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد في أعلا الأنوال الشياطين من الصبيان كيف يشاؤون خيطان المسادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر وغيره . فلم يزل طائف يتفرج على نوع حتى اجناز بشيخ كبير السن (١٤٢ ظ) ينسج بمنواله ، يمج تارة عن يمينه وتارة عن شماله ، يرميه لمكوكه في باطن مسديته ، فيظهر بذلك نسج بديع كزهر الربيع ، فقال السلطان له العافية يا أبي ، فلم يرفع الشيخ رأسه إليه ولا نظر له بعينه ، ولا دعاه بالرد عليه ، بل صار مقبلا على نسجه ، ناظرا إلى سير مكوكه ورجعه ، فتعجب السلطان من مكابדתه على شيخونخته ، وبديع تفرسه في صنعته مع سكتته ، وكان ينبغي للشيخ حين كلمه السلطان أن يدعو له ويسأله معروفة ليرتفق به ، فما كان يجب سؤاله ، لأنه لولا رق له لكبر سنه وجهده في العمل ما كلمه ، ولا كلمة إلا لخير يصله منه إليه لشفقته عليه . . . (١٤٤ و) ثم إن السلطان المذكور شاهد ما في دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراکش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثيابا يستصحبها معه ، وترك الباقي إلى حين تكلمة نسجه ،

(١) من كلمة Calotte أى الطاقية الصوفية التى يضعها السلطان على رأسه والأقبية جمع قباء أى الثوب الذى يلبس فوق ثيابه الأخرى ويشبه المعطف .

ثم إن السلطان رأى زير ماء عليه قادوس فخار أحمر شرب صناع دار الطراز من الزير المذكور ، ملأ بيده وشرب منه . حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف البغدادي معلم دار الطراز لما سأله وقلت : بلغني أن السلطان ملأ بنفسه بقادوس فخار على زير بدار الطراز وشرب منه ، فقال نعم ، عايته يشرب من الزير المذكور وإن الصناعات احتفلوا بذلك القادوس وسموه (١٤٤٠ ظ) قادوس السلطان ، وصاروا يقولوا اسقونا بقادوس السلطان : وصار له بينهم منزلة ورفعة قدر وعظم شأن . فقلت في ذلك القادوس بيتين مقصورين وهما هذين :

صار للقادوس ذكرا عندما ... شرب السلطان منه وار توي
فحوى فخرا دائما بجميل ... الذكر ما بين السورى

ثم إن السلطان خرج من دار الطراز وأتى دار الصناعة فرأى ما فيها من الشواني الغزوانية والخبائيق الشيطانية ، فرموا بها قدامه فاستحسن رميها ، ورجع من بين السورين ، إلى أن دخل الأسكندرية من الباب الأخضر . وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة ، بقاعات القصر المذكور ، فرسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم ، فبنيت ، وجعل له فيها من السلاح الحديد شيء كثير ، فكان عمله لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة . وقد قيل في هذا :

لست أرى للزمان سيئة ... وهذه من فعاله الحسنة
بل وجهه أبيض يضيء سنا ... وهذه فوق بخله حسنة

وهذا القصر المذكور الحاوي للسلاح المذكور ، حرسه الله تعالى من الفرنج حين ظفروهم بالأسكندرية ، بعد أن أتوا إلى بابه مشاة وخيالة ، ألهمهم الله تعالى عنه وكرمه أنه جامعاً للمسلمين يصلون به ، ويتعبدون فيه ،

فكفوا عن كسر بابه ، ودخولهم إياه ، واول فهموه أحرقوه بعد أن كانوا يحملوا منه العدد الكبيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجدا جامعاً لصلاة المسلمين (١٤٥ و) ومنعهم له أيضا لأنهم لم يتعرضوا لخراب شيء من جوامع الإسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراج المسلمين لكنائسهم التي هي بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم في أيام دولته بهدم كنائس النصارى ، فهدم منها بمصر والاسكندرية والصعيد والبحيرة والشام كثيرا ، لذلك لما ظفروا بالإسكندرية امتنعوا من خراب مساجدها خوفا مما تقدم من خراب كل كنائس النصارى ، فامتنعوا من ذلك خوفا من خراب بقيتها . . . (١٤٦ ظ) نعود إلى بقية خبر السلطان الملك الأشرف شعبان دخوله الاسكندرية ، وذلك أنه صلى العصر من يوم الجمعة بمسجد القصر المتقدم ذكره وركب وخرج من باب السدرة ، وقصد وطاق (١) المضروب بالموضع المعروف بالسرية شرقى ظاهر الإسكندرية بات به ، وأصبح يوم السبت مقبلا نهاره ، فكانت الرجال والنساء والعبيد والإماء يتفرجون بوطاقه ، وبايوانه الخيام المنصوب ، والايوان المذكور من أحسن ما يكون من الخيام الناصع البياض وهو شاهق في الهواء ، مزخرف بأنواع التقاصيص الملونة ، وأرضه مفروشة بالبسط

(١) العسكر الذي ضربت فيه الخيام .

ج - مستحبات من معاهدة الصلح المعفودة بين الشريف برسباي وملك أرققوره ألفونسو الخامس سنة ٨٣٣ هـ

(من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية Los Documentos Arabes
Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón ص ٣٧٣ - ٣٧٦)

” الفصل الرابع : أن جميع النظارين للمراكب على اختلاف أجناسها
من رعية ملك أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الاسكندرية أو جميع المئن
الاسلامية والسواحل لا يلزموا باعطاء ولو شيئا بسبب من الأسباب ،
ولا يغصبوا على ذلك ، ويكونوا متصرفين على أنفسهم وأموالهم ولا
يلزموهم بالتفرق على العوائد القديمة .

الفصل الخامس : أن النظارين والتجار في جميع مراكب رعية ملك
أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الاسكندرية وإلى جميع المئن بالسواحل
من بلاد مولانا السلطان لا يلزموا بتفريغ بضاعة ولا متجر إلا الذين يختارون
التجار لتفريغه ، ولا يلزموا إلا بموجب ما فرغوه وباعوه ، وأن جميع
ما يفرغوه يلزموا بموجب ، وإن أرادوا شيئا من البضاعة يمكنوا من ذلك
بعد وزن الموجب ولا يلزموا بشيء عوائد غير ذلك .

الفصل السادس : إذا حضر أحد من النظارين أو التجار من رعية
ملك أركون إلى ميناء ثغر الاسكندرية وسائر المئن من بلاد مولانا السلطان
قبل تحديدهم في بضائعهم ومتاجرهم وبعد تحديدهم أنه لا يلزموا شيئا من
الموجب السلطاني ولا أحد من المباشرين والرعية بسبب ساير المتاجر والمراكب
على اختلاف أجناسها إلا بموجب مولانا السلطان غير ما يباع من البضائع
على العوائد القديمة .

الفصل الثامن : إن لا مولانا السلطان ولا أحد من الأمراء ولا أحد من المباشرين ولا من الرعية لا يأخذوا شيئاً من بضاعة رعية ملك أركون ببحر الاسكندرية أو عشر دمشق ولا ببيروت ولا في جميع بلاد مولانا السلطان من بضائعهم بثمان ولا بغيره إلا برضى صاحب البضاعة ومن كل بد إذا أراد مولانا السلطان أو أحد من مباشرينه أن يأخذوا شيئاً من البضائع والمتاجر الموجودة يكون ذلك باتفاق التاجر ورضاه إعطاء له الثمن مخلص بغير تعويق ولا تسويق ، ولا يلزمونهم ببيع ولا بشراء ولا يجبروا بشراء شيء ولا بوغاء على تجار رعية ملك أركون شيئاً من البهار ولا زاد ولا جوهر ولا شيء من المتاجر والبضائع بغير رضاهم بسبب من الأسباب ولو كان أحد من غير جنسهم يلزموا بشيء أجناس من جنوسه لا يلزموا رعية ملك أركون بذلك .

الفصل الرابع عشر : لا يعوق لأحد من رعية ملك أركون ولا من التجار ما يركب بثغر الاسكندرية من الذهب لأحد من رعية مولانا السلطان ولا من التجار ولا من سائر الطوائف إلا أن يكون بأمر مولانا السلطان أو مولانا ملك الأمراء أو أحد من مباشرين الديوان .

الفصل الرابع والعشرين : إن مولانا السلطان يرسم بعمارة فندق للكتيلان وبينائه من غير أن يكلفوا التجار ولا القنصل بشيء من ذلك .

الفصل الخامس والعشرين : إن أحد من التجار رعية ملك أركون إذا هلك في بلاد مولانا السلطان فيكون جميع موجوده تحت يد من يكون أوصى إليه ذلك، وإن مات من غير وصيته يكون ماله تحت يد القنصل أو تحت يد أحد من تجار الكتيلان الذين يكونون موجودين في المكان الذي هلك فيه ، وإذا لم يكون ثم قنصل ولا مولانا السلطان، فلأحد المباشرين الوصية إليهم في ذلك “

(تم الكتاب بعون الله وتوفيقه)

المراجع والفهرس

مراجع الكتاب

أ - مصادر عربية قديمة

- ١ - البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٠١ .
- ٢ - ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : كتاب روض القرطاس ، الجزء الأول نشره تور نبرج Carlus Johonnes Tornberg ، أبسال Upsal ، سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٣ .
- ٣ - ابن إياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الأجزاء الثانى والثالث والرابع ، نشره باول كاله Kahle ، ومحمد مصطفى ومورتس سوبرنهام Sobernheim اسطنبول ١٩٣١ - ١٩٣٢ .
- ٤ - ابن بسام الشترينى (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .
- ٥ - ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، نشره Codera ، مدريد ١٨٨٣ .
- ٦ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى) : رحلة ابن بطوطة ، المسماة "تحفة النظار" فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ٧ - ابن جبير اندلسى (أبو الحسين محمد بن أحمد البلسى) : رحلة ابن جبير ، نشره وليم رايت William wright ، العدد الخامس من مجموعات جب التذكارية ليدن ١٩٠٧ .

- ٨ - ابن حوقل النصيبي : كتاب صورة الأرض ، تحقيق Kramers ،
ليدن ١٩٣٨ .
- ٩ - ابن الخطيب لسان الدين) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويج قبل
الاحتلام ، نشره ليفي بروغنسسال Levi - Provençal ،
الرباط ١٩٣٤ .
- ١٠ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ
والخبر ، الجزء الأول (المقدمة) طبعة مصر ، مطبعة
التقدم .
- ١١ - ابن دقاق (إبراهيم بن محمد) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ،
الجزء الخامس ، بولاق ، ١٣٠٩ هـ .
- ١٢ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : كتاب الأعلاق النفيسة ،
الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca
Geographorum Arabicorum ، نشره دي غوييه
De Goeje ، ليدين ١٩٨١ - ١٩٨٢ .
- ١٣ - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) : كتاب زبدة كشف
الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، نشره بول رافيس
Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ .
- ١٤ - ابن عبد الحكيم (عبد الرحمن) : فتوح مصر وأخبارها ، طبعة
توري ، نيوهافن ١٩٢٢ ، وطبعة ليدين ١٩٢٠ .
- ١٥ - ابن عبد المنعم الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : صفة
جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في
نخبة الأقطار ، نشره ليفي - بروغنسسال ، القاهرة ١٩٣٧ .
- ١٦ - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الحمداني) : مختصر كتاب البلدان ،
الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدين ١٨٨٥ .

- ١٧ - ابن ممتى (الأسعد) : كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ .
- ١٨ - ابن واصل (جمال الدين) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ١٩ - أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، جزآن ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٢٠ - أبو عبيد الله البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره البارون دي سلان Bon De Slane تحت عنوان Description de L'Afrique Septentrionale ، الجزائر ١٩١١ .
- ٢١ - السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ .
- ٢٢ - السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٩١٠ - ١٣١٢ .
- ٢٣ - السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، المطبعة التجارية ، مصر ١٣٢٧ هـ .
- ٢٤ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ، مصر ١٣٢٦ هـ .
- ٢٥ - عبد اللطيف البغدادى (موفق الدين عبد اللطيف) : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ .
- ٢٦ - على مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها ، المعروفة بالخطط التوفيقية الجزء السابع ، بولاق ١٣٠٥ هـ .

- ٢٧ - القلقشندي (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،
الجزء الرابع ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٥
- ٢٨ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن
الجواهر في التاريخ ، الجزء الأول ، طبعة مصر ١٣٤٦ هـ
- ٢٩ - » : كتاب التنبيه والإشراف ، طبعة مصر ١٩٣٨ .
- ٣٠ - المقرئ (أحمد بن محمد) : نفع الطيب من غصن أندلس الرطيب ،
الأجزاء الثلاثة الأولى ، طبعة تحيي الدين عبد الحميد ،
القاهرة ١٩٤٩ .
- ٣١ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) : كتاب المواعظ
والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزآن ، طبعة
بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٣٢ - » : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره وحققه الدكتور
محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٣٣ - » : اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة اخلافاً نشره الدكتور جمال
الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٤ - » : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى
زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ٣٥ - النويري (محمد بن قاسم) : الامام بالأعلام فيما نجزت به الأحكام
في الأمور المقضية في واقعة الاسكندرية ، مخطوط
بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ١٤٤٩ تاريخ .
- ٣٦ - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي) : معجم البلدان ،
المجلد الأول ، ليبزج ١٨٧٠ .
- ٣٧ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان ،
الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، لندن ١٨٩١ .

ثانيا - مراجع عربية حديثة

- ٣٨ - إبراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ،
القاهرة ١٩٥٧ .
- ٣٩ - » : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨
- ٤٠ - إبراهيم جمعة : جامعة الإسكندرية ، القاهرة ١٩٤٤ .
- ٤١ - إبراهيم على طرنخان : مصر في عصر دولة المماليك الحراكسة ،
القاهرة ١٩٦٠ .
- ٤٢ - إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ج ١ القاهرة ١٩٤٦ .
- ٤٣ - » : مصر في عصر البطالة والرومان ، مقال في " المحمل
في التاريخ المصري " ، القاهرة .
- ٤٤ - أحمد السيد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال بالمجلة
التاريخية المصرية سنة ١٩٥٩ .
- ٤٥ - السيد الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٤٦ - السيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها
وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤٧ - » : الاسكندرية ، مقال في دائرة معارف الشعب ، العدد
٨٥ ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤٨ - » : المساجد والقصور في الأندلس ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٤٩ - » : مساجد ومعاهد ج ٢ ، (كتاب الشعب رقم ٧٨)
القاهرة ١٩٦٠ .
- ٥٠ - : الأندلس : بحث طويل بدائرة معارف الشعب
العدد ٦١ ، ٦٤ ، ١٩٥٩ .
- ٥١ - » : الحكم الربضي : بحث بدائرة معارف الشعب ، العدد ٦٧
(١٥)

- ٥٢ - السيد عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران في العصور
الاسلامية الوسطى ، مقال بمجلة (المجلة) العدد التاسع ،
سبتمبر ١٩٥٧ .
- ٥٣ - » : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ،
مقال بمجلة (المجلة) العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ .
- ٥٤ - بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة من الانجليزية الأستاذ محمد فريد
أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ .
- ٥٥ - جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة
١٩٥٧ .
- ٥٦ - » : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٥٧ - جمال الدين الشيال : الاسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي ،
مقال في الكتاب الذي أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية
عن مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٥٨ - » : الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم
العصور إلى الوقت الحاضر ، بحث طويل في المجلة التاريخية
المصرية أكتوبر سنة ١٩٤٩ .
- ٥٩ - » : الفسطاط ، مقال في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ،
المجلد ١٢ ، ١٩٥٨ .
- ٦٠ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، في المغرب ومصر
وسورية وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٦١ - حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، الجزء الأول ،
القاهرة ١٩٤٦ .
- ٦٢ - » : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مقال في مجلة الكتاب
عدد يناير سنة ١٩٤٧ .
- ٦٣ - » : قلعة قايتباي : أثر إسلامي عظيم وسط البحر ،
مقال بجريدة الأهرام الصادر في ٢٥ يونيو ١٩٤٩ .

- ٦٤ - حسين مؤنس : أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو سنة ١٩٥١ .
- ٦٥ - زكى على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد الثاني سنة ١٩٤٤ .
- ٦٦ - » : الاسكندرية في عهد البطالة والرومان ، مقال في الكتاب الذي أصدرته الغرفة التجارية بالاسكندرية ، ١٩٤٩ .
- ٦٧ - زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ .
- ٦٨ - » : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٦٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية القاهرة ١٩٥٩ .
- ٧٠ - سيدة الكاشف : مصر في عصر الولاة ، منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٧١ - سيدة الكاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين القاهرة ١٩٦١ .
- ٧٢ - صديق شيبوب : جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب فبراير ١٩٤٩ .
- ٧٣ - عبد الرحمن زكى : عواصم مصر الاسلامية ، فصل من كتاب "في مصر الاسلامية" القاهرة ١٩٤٧ .
- ٧٤ - » : قلعة صلاح الدين وقلع اسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٧٥ - عبد العزيز الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في

القرن التاسع الهجرى ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ،
المجلد ١٦ ، الجزء الأول مايو ١٩٥٤ .

٧٦ — عبد العزيز مرزوق (محمد) : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ،
القاهرة ١٩٤٢ .

٧٧ — عبد الهادى شعيرة (محمد) : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية
العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة
الاسكندرية التجارية سنة ١٩٤٩ .

٧٨ — عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، مقال فى كتاب الغرفة
التجارية ، ١٩٤٩ .

٧٩ — عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ، الاسكندرية ١٩٤٢

٨٠ — على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ الممالك البحرية ، القاهرة ،
١٩٤٨ .

٨١ — فؤاد فرج : الاسكندرية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٨٢ — فييت (جاستون) : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، مقال
ترجمه الأستاذ محمد وهبى عن L' Egypte Contemporaine
فى كتاب " فى مصر الاسلامية " القاهرة ١٩٣٧ .

٨٣ — كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

٨٤ — كومب (إتين) : بعض منتجات من كتاب الإمام بالأعلام للنويرى ،
نشرها فى مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ،
العدد الثالث ١٩٤٦ .

٨٥ — لطفى عبد الوهاب : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، دراسة فى حضارة
البحر الأبيض ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

٨٦ — محمد توفيق بلبع : قلعة قايتباي بالاسكندرية : الرسالة التى تقدم بها
لنيل درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية .

٨٧ - محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ،
الاسكندرية ١٩٥٩ .

٨٨ - محمود أحمد : تاريخ العمارة الإسلامية في مصر ، مقال في كتاب
" في مصر الإسلامية " القاهرة ١٩٣١ .

٨٩ - محمود عكوش : مصر في عهد الإسلام ، دار الكتب المصرية
القاهرة ١٩٤١ .

٩٠ - ولیم مویر : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين
وسليم حسن القاهرة ١٩٢٤ .

أانيا - مراجع أجنبية

- 91 - ALARCON (Maximilano) R. GARCIA DE LINARES Los Documentos àrabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón, Madrid, 1940.
- 92 - ARTHUR LANE Early Islamic pottery, London.
- 93 - BRECCIA Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922.
- 94 - COMBE (Etien) Le texte d'Al-Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie, dans: Bulletin of the Faculty of Arts, University of Alexandria, vol. III, 1946.
- 95 - » Les Sultans Mamloûks Ashraf Sha'bân et Ghauri à Alexandrie, dans Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, fasc. 30-31, 1936.
- 96 - » Alexandrie musulmane; Notes de topographie et d'histoire de la ville, depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours, dans, Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. XV, 1933.
- 97 - » Notes sur les forts d'Alexandrie et de ses environs, dans: Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie No. 34, 1940.
- 98 - HEYD Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, t. I., Leipsig, 1923.
- 99 - JONDET (Gaston) Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, Memoire de l'Institut d'Egypte, vol. X, le Caire, 1916.

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

الفصل الاول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربي

٧	اختيار الاسكندر لموقع الاسكندرية
٨	مميزات هذا الموقع
٨	الغرض من بناء الاسكندرية
١١	تخطيط الاسكندرية في عهد الاسكندر
١٣	إستكمال بناء المدينة في عهد بطليموس سوتر
١٥	الاسكندرية في عصر البطالة
١٩	أحياء الاسكندرية
٢٠	منشآت البطالة
٢٣	المنار
٢٧	دار المحكمة والمكتبة
٢٩	المعابد
٣٠	السوما أو ضريح الاسكندر
٣٣	الاسكندرية في العصر الروماني
٣٠	إنتشار المسيحية وبداية الاضطهاد الديني
٣٢	إنتصار الأرثوذكسية السكندرية

الفصل الثاني

الاسكندرية منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الفاطمي

٣٧	حصار العرب للاسكندرية
٣٨	فتح الاسكندرية وشروط معاهدة الصلح مع الروم
٣٩	رأى عمرو بن العاص في إتخاذ الاسكندرية حاضرة للبلاد
٤٠	أسباب عدول الخليفة عمر عن رأى عمرو
٤٢	غزو الروم للاسكندرية سنة ٢٥ هـ (حملة مانويل)
٤٤	غزوة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ
٤٥	اضمحلال الاسكندرية عقب الفتح العربى
٤٧	الاسكندرية رباط للجهاد
٤٩	مساجد الاسكندرية فى العصر الاسلامى الاول
٥٠	استعادة الإسكندرية لنشاطها الصناعى والتجارى
٥١	مشاركة الإسكندرية للأحداث السياسية الكبرى
٥٢	ازدهار الاسكندرية فى العصر الطولونى

الفصل الثالث

الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبي

٥٥	الغزو الفاطمى
٥٧	الاسكندرية مركز التجارة بين الشرق والغرب
٥٨	ميل الاسكندرية للمعارضة
٥٩	إزدهار الحياة الفنية والاقتصادية فى الاسكندرية
٦٠	منشآت الفاطميين فى الاسكندرية

صفحة

٦١	جامع العطارين
٦٢	مسجد الطرطوشي
٦٣	مسجد المؤمن
٦٣	المدارس السنية
٦٤	حصار الصليبيين للإسكندرية سنة ٥٦٢ هـ
٦٥	غزوة فرنج صقاية سنة ٥٦٩ هـ
٦٦	إهتمام صلاح الدين بمدينة الاسكندرية
٦٧	تألق المدينة في العصر الأيوبي من الوجهة العلمية والاقتصادية
٦٨	الديوان السكندري
٦٩	علاقة الاسكندرية التجارية بغيرها

الفصل الرابع

الاسكندرية في عصرها الذهبي (عصر المماليك)

٧٦	تحويل ولاية الاسكندرية إلى نيابة
٧٧	أثر الانتعاش الاقتصادي في تقدم العمران وكثرة البنيان
٧٨	الاسكندرية في عهد الظاهر بيبرس
٨٠	الاسكندرية في عصر الناصر محمد بن قلاوون
٨٢	الاسكندرية في عهد الأشرف شعبان
٨٥	غزوة القبارصة وأثرها في العناية بتحصينات المدينة
٩٠	الاسكندرية في عصر الأشرف برسباي
٩٢	الاسكندرية في عصر الأشرف قايتباي
٩٨	الإسكندرية في عصر قانصوه الغوري
١٠٣	اضمحلال الاسكندرية بعد كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح

صفحة

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية في العصر الاسلامى

أولا :	التخطيط والعمران	١١٣
	العناصر التى أقيمت بالاسكندرية	١٢٧
أ -	العمارة الدينية	١٢٨
	رباط الواسطى	١٣١
	رباط سوار	١٣١
	رباط الهكارى	١٣٢
	دار الحديث التكريتية	١٣٢
ب -	العمارة المدنية	١٤٠
١ -	القصور	١٤٠
٢ -	الدور	١٤٣
٣ -	الحمامات	١٤٤
٤ -	الصهاريج والخزانات	١٥٠
٥ -	الفنادق	١٥٠
٦ -	دار الصناعة	١٥٠
٧ -	دار الضرب	١٥٥
٨ -	دار الطراز	١٥٦
ج -	العمارة الحربية	١٥٩
ثانيا :	الحالة الاقتصادية	١٦٣
أ -	التجارة	١٦٣
ب -	الزراعة	١٦٨
ج -	الصناعة	١٧١

صفحة

١ - صناعة النسيج ١٧١

٢ - صناعة الخزف ١٧٥

٣ - صناعة الزجاج ١٧٦

ثالثا : الحالة العلمية ١٧٧

معرض الكتاب

١ - نيابة الاسكندرية (نقلا عن صبح الأعشى) ١٨٣

ب - زيارة الأشرف قايتباى الأولى للاسكندرية
(نقلا من كتاب بدائع الزهور) ١٨٥

ج - زيارة السلطان قايتباى الثانية للاسكندرية
(نقلا من كتاب بدائع الزهور) ١٨٨

ء - زيارة السلطان قانصوه الغورى الأولى للاسكندرية
(من كتاب بدائع الزهور) ١٩٠

هـ - رحلة سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق ١٩٣

و - ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الأشرف
شعبان (نقلا من مخطوط الإمام بالإعلام) . ١٩٦

ز - زيارة الأشرف شعبان للاسكندرية
(نقلا من مخطوط الإمام بالإعلام) . ١٩٨

ح - منتخبات من معاهدة الصلح بين برسباى
وملك أرغون الفونسو الخامس ٢٠٤

فهرس الأشكال والخرائط

صفحة

- (شكل ١) جانب من البرج الرومانى بالشلالات ١٧
(شكل ٢) جانب من البرج الرومانى بسور الاسكندرية جهة
الشلالات ٢١
(شكل ٣) منار الاسكندرية وفقاً لوصف المؤرخين. ٢٥
(شكل ٤) الاسكندرية فى عصر دولة المماليك الجراكسة. ٨٣
(شكل ٥) السلطان قايتباى ٨٩
(شكل ٦) قلعة قايتباى قبل الترميم ٩٣
(شكل ٧) منظر جانبى لقلعة قايتباى ٩٥
(شكل ٨) قلعة قايتباى أيام الحملة الفرنسية. ٩٩
(شكل ٩) السلطان قانصوه الغورى ١٠١
(شكل ١٠) منظر جانبى لقلعة قايتباى ١٠٥
(شكل ١١) قلعة قايتباى من الداخل ١٠٧
(شكل ١٢) الاسكندرية فى عصر السلطان الأشرف شعبان ١١٥
(شكل ١٣) إيوان الصلاة بمسجد قلعة قايتباى ١١٧
(شكل ١٤) أرضية مسجد قلعة قايتباى بالإسكندرية ١١٩
(شكل ١٥) خريطة الاسكندرية بعد الحملة الفرنسية ١٢٥
(شكل ١٦) مسجد تربانة بالاسكندرية ١٩٢
(شكل ١٧) زخارف المحراب بجامع جوربجى ١٣٣
(شكل ١٨) محراب مسجد جوربجى ١٣٥

صفحة

- (شكل ١٩) مدخل مسجد ياقوت العرش ١٣٧
- (شكل ٢٠) واجهة أحد الدور القديمة بالاسكندرية. ١٤١
- (شكل ٢١) حمام المؤيد بالقاهرة ١٤٥
- (شكل ٢٢) تصميم لحمام بالاسكندرية ١٤٧
- (شكل ٢٣) داخل أحد حمامات الإسكندرية ١٥١
- (شكل ٢٤) وكالة جورجي ١٥٣
- (شكل ٢٥) قلعة قايتباي : منظر قديم لأحد أبراجها ١٥٧
- (شكل ٢٦) صحن قلعة قايتباي ١٦١
- (شكل ٢٧) قلعة قايتباي : أحد الأبراج الخارجية ١٥٦
- (شكل ٢٨) قلعة قايتباي : داخل سور القلعة ١٦٩
- (شكل ٢٩) منظر قديم لقلعة قايتباي ١٧٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ه شارع مسبيرو — بالقاهرة ج.ع.م.٠
فرع الاسكندرية — ٢ ميدن التحرير